

نوابغ الفكر العربي

٢

# الحياة

بقلم حنا الفاخوري



دار المعارف بمصر





الحب : حفظ



نوابغ الفكر العربي

٢

# الحافظ

بقلم حنا الفاخوري

الحافظ علم من أعلام الفكر العربي ،  
وركن من أركان الأدب ، بل هو الإمام الأعلى  
في الكتابة والبلاغة جمع فأوعى ثم كتب وإذا  
كتبه خزانة اجتمعت فيها ثقافة العرب والأعاجم ،  
وموسوعة علمية أدبية كان لها الأثر الكبير  
في تيارات العلم والأدب على مر العصور .



دار المعارف بمصر



## الفصل الأول عصير النجاح

### ١- البيئة السياسية

تقوضت أركان الدولة الأموية في الشام ، بعد أن اشتعلت نيران الثورة العباسية في العراق وخراسان ، يضررها أبو مسلم الخراساني وقائده قحطبة بن شبيب الطائي<sup>(١)</sup> ، ومشى العباسيون يرفعون الراية السوداء من مكان إلى مكان والنصر حليفهم ، وإذا أبو العباس في مسجد الكوفة ينادى بنفسه خليفة ، وإذا الزاب الأعلى<sup>(٢)</sup> يشهد حطمة مروان الثاني الخليفة الأموي ، وإذا بلاد الشام كلها تضحج بجيوش الثائرين ، وإذا أبو فطرس<sup>(٣)</sup> يشهد استئصال شأفة الأمويين ما عدا عبد الرحمن ، صقر قریش ، مؤسس الدولة الأموية الأندلسية .

اتخذ أبو العباس السفاح ( ٧٤٩ - ٧٥٤ م ١٣٢ - ١٣٦ هـ ) الهاشمية قرب الأنبار قاعدة له ، ولما قام بعده أبو جعفر المنصور ( ٧٥٤ - ٧٧٥ م ١٣٦ - ١٥٨ هـ ) وامتدت على يده حدود الإمبراطورية العباسية حتى بلغت كشمير في الهند ، فكر في عاصمة لمملكته تكون بعيدة عن الكوفة موطن الثورة والعصيان ، وقرية من فارس ، تفتح أبوابها على عوالم من الثقافات والمدنات . فوقع اختياره على قرية مسيحية قائمة على ضفة دجلة الغربية اسمها بغداد . فأمر الخليفة أن تحول القرية إلى مدينة ، وأمر بالمهندسين والصنّاع

---

( ١ ) هو أحد الدعاة الاثني عشر الذين بثوا الدعوة سرا للعباسيين .

( ٢ ) الزاب الأعلى : ميدان المعركة الفاصلة التي جرت في بلاد الموصل بين مروان الثاني وقواده وبين العباسيين .

( ٣ ) أبو فطرس : نهر فلسطين ؛ كان مروان الثاني قد عرج به ، بعد هزيمته في الموصل في طريقه إلى مصر .

وأرباب العمل ، فإذا قصور الأكاسرة في المدائن تنقل حجاجتها وأنقاضها لتقوم بها قصور بغداد ، وإذا المدينة الحديدية ترتفع على شكل مستدير في وسطها قصر الخليفة المدعو باب الذهب أو القبة الخضراء ، وإذا المدينة فارسية في مواد بنائها ، فارسية في هندستها ، يصبح فيها قصر الخليفة قلباً تتجه إليه كل الآمال والأعمال ، وتحيط به الجلالة والوقار ، ويقوم بينه وبين الشعب جيش من الموظفين والحُجَّاب على أسلوب فارسي يتعد عن الشعبية العربية والبساطة العربية . وارتفعت ، إلى جنب قصر الخليفة ، قصور فارسية للبرامكة وزراء الدولة ومستشاريها .

والعباسيون أول من اتخذ الوزراء عن الفرس ، وقد جعلوا في يدهم مقاليد أمور الدولة ، وعولوا عليهم في أكثر الأحوال ، وجعلوا الوزارة وزارتين : وزارة تفويض تخول صاحبها سلطان تدبير الأمور برأيه ، ووزارة تنفيذ ينفذ صاحبها ما يراه الخليفة ، ويكون واسطة بين الخليفة والشعب يُمضى فيه أمر الخليفة من تقليد الولاية وتجهيز الجيوش وما إلى ذلك .

وهكذا حاكى العباسيون القياصرة والأكاسرة في تنظيم دولتهم ، ومالوا إلى الترف والرخاء ، واعتمدوا على من يقوم مقامهم في مباشرة الأعمال ، ففرعوا المناصب ، وزادوا على الوزراء من يراقب تصرف العمال<sup>(١)</sup> في الأمصار وقلدوه ديوان البريد ، ومن يقوم بختم الرسائل وتسجيلها وقلدوه ديوان التوقيع أو الخاتم ، ومن يتولى النظر في ضياعهم وأملاكهم وقلدوه ديوان الضياع ، ومن ينظر في حسابات حاشيتهم وخدامهم وقلدوه ديوان الخاص ، ومن ينصرف إلى ضرب النقود والقيام بالطراز وسدّموا إليه دار الضرب وديوان الطراز ، وأنشأوا ديوان العزيز وهو مجلس الخليفة يرأسه الوزير الأكبر ، وديوان الجيش في مجلسين أحدهما للتقرير والآخر للمقابلة ، وديوان بيت المال للإشراف على الواردات والصادرات ، وديوان الجهبذة<sup>(٢)</sup> ، للإشراف على مصالح أهل الذمة<sup>(٣)</sup> ، إلى غير ذلك من الدواوين .

(١) العامل : الرئيس والوالى والحاكم .

(٢) الجهبذ بفتح الجيم والباء والجهبذ بكسر الجيم والباء لغة : هو الناقد العارف .

(٣) الذمة : الأمان والعهد . والذى : الذى أعطى الذمة أى الأمان فأعطى الجزية .



أما العمال فكان العباسيون يقيمونهم على الأقاليم البعيدة كالشام ومصر وخراسان ، ومن أشهرهم جعفر بن يحيى البرمكي الذي ولاه الرشيد المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية ، وأخوه الفضل بن يحيى الذي تولى الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك .

ولم يقف العباسيون عند هذا الحد بل تجاوزوه شيئاً فشيئاً إلى إدخال الفرس والأتراك في جندهم ، فكان في الجيش فرقة خراسانية ، وكان في الجيش أيضاً عدد كبير من الفراغنة أي الأتراك ، جمعهم المعتصم من أسواق بغداد لخوفه على نفسه من جنده ، فكانوا على الخلافة والدولة وبالا ، وقد عملوا على ذلك أركانها وعلى نشر الفوضى في البلاد .

ولم تخل البلاد ، في عهد بني العباس ، من حروب وفتن . أما في الداخل فقد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية<sup>(١)</sup> مؤلفي أبي مسلم الخراساني ، والزنادقة في العراق وفارس ، والعلويين مع ابن طباطبا ، والخرميين<sup>(٢)</sup> مع بابك ، وغيرهم من الذين قاموا في وجه الأمن والسلام ؛ وأما في الخارج فقد أكثر الخلفاء من الصوائف والشواني ، وهي الحملات والغزوات في الصيف والشتاء ؛ وقد اشتهر في ذلك أبو جعفر والمهدي والمعتصم ، فحاولوا غزو الممالك الملاصقة ولا سيما بلاد الروم .

تلك خلاصة الحالة السياسية في البلاد العربية في عهد الجاحظ ، فقد قامت الدولة العباسية في أول عهدها على القوة ، واستعانت بالفرس خاصة والشعوبية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشمين ،

(١) « الراوندية » : مذهب أتباع ابن الراوندي كان معتزلياً ثم أصبح من الروافض وله كتاب في فضيحة المعتزلة وآخر في الطعن على نبي المسلمين .

(٢) « الخرمية » : مذهب أتباع بابك الخرمي . و « خرمية » مدينة في أذربيجان .  
ظهر بابك سنة ٢٠١ هـ وملك الجبل عشرين عاماً في خلافة المعتصم إلى أن قبض عليه وقتل سنة ٢٢٣ هـ وكان يدعو إلى الإباحية . ويسمى حصنه « البذ » وفي ذلك يقول أبو تمام من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي :

رى الله منه بابكاً وجيوشه	بقاصمة الأصلاب في كل مشهد
بأسمع من صوب الغمام سماحة	وأشجع من صرف الزمان وأنجد
ففي يوم بذ الخرمية لم يكن	بهيابة نكس ولا بمعد

فشالت كفة العرب والعروبة ورجحت كفة الأعاجيم ، واقتصر شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التي احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس في صلب الدولة . ولما نقلت العاصمة إلى بغداد ، تحول وجه الدولة عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وجعلوا قصور الخلفاء في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن ، كما أدخلوا طرائق الفرس في تنسيق الدواوين وأساليب الحرب ونظم الحكم . فتحوّلت الأنظار عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، وانفتحت على الحديد والاستفادة منه ، ونشأت من ثم النزعة إلى التجديد ، وعلت المناداة بمذهب « التخيّر » أي تخير أحسن ما في الحضارات القديمة غير العربية ، وتوسيع الصدر لها والعمل بها .

## ٢ - البيئة الاجتماعية

تعددت عناصر الدولة العباسية في امتداد أطرافها من المغرب إلى مصر والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وما وراء النهر ، واشتد الاختلاف في مييزات تلك العناصر وعاداتها ومناهج تفكيرها ، كما اشتد التمازج فيما بينها . فلم تعد البيئة الاجتماعية عربية تنزع نزعة العروبة الخالصة ، بل قويت فيها الشعوبية وحركة التحرر من الأخلاق العربية ، فجرّ التمازج انحطاطاً في الأخلاق . وكانت اقتصاديات البلاد واسعة جداً مما فسح لها مجالا واسعاً في الترف . أما أموال الدولة فكانت في عهد ازدهار الخلافة تؤلف ثروة طائلة ، إلا أنها بعد المعتصم أصبحت بيد الأجناد الغرباء والوزراء والعمال يجمعونها بطرق شتى ويسيطون بذلك إلى الدولة والشعب . وأما أموال الرعية فقد توافرت في المدن حيث عاش الناس في رخاء وسعة ، بعد إذ اهتمت الدولة بالزراعة وشقت لها الأبنية للرعى ، وعززت الصناعة ولا سيما صناعة النسيج ، واستخرجت المعادن من مناجم فارس .

وكان من الترف والفراغ أن شاع اللهو<sup>(١)</sup> في البلاد، ومال الناس إلى الغناء

(١) طالع المنتخبات ص ٦٨ - ٦٩ .



والرقص والتفنن في الملبس، كما مالوا إلى لعب الشطرنج وسباق الخيل والصيد .  
والصيد أحب ضروب اللهو عند الخلفاء والأمراء ، ولذا أولع الناس بتربية البزاة  
وكلاب الصيد وما إلى ذلك .

وكان من الترف والفراغ أن شاع التسرّي ، وتعاطى الناس المسكرات سرّاً  
وعلاً<sup>(١)</sup> ، وعافر الحمرة حتى بعض الخلفاء . وكانت تعقد لمعاقرة الحمرة  
والغناء حلقات أنس تُسمّى مجالس الشراب .

وتوافر الطلب على العلماء والشعراء<sup>(٢)</sup> والمغنين وأرباب الموسيقى فاتخذهم الأمراء  
والأعيان ندماء لهم .

وانتشرت في البلاد تجارة الرقيق ، وكان في بغداد شارع يسمى « شارع  
دار الرقيق » . وكان الأرقاء ، ولا سيما الجوّاري ، أنواعاً مختلفة ، فهناك السود  
من السودان وجنوبي الجزيرة العربية وشمال إفريقيا ، وهناك البيض من أتراك  
وصقالية وغيرهم . وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخاسين<sup>(٣)</sup> بألوان  
الحمام ، فشبه الصقالية بالحمام الأبيض ، وشبه الزنج بالحمام الأسود .  
واشتهر من الأرقاء الغلمان يلبسون الحلل الجميلة ويتريّتون ويتعطرون كالنساء ،  
والغلاميات الحسان يقصصن شعورهن ويلبسن ثياب الغلمان ، وقد تغزل الشعراء  
بكلا الفريقين .

وقد عُنى العباسيون بتعليم الجوّاري وتلقينهن الغناء<sup>(٤)</sup> فكُنَّ من أشد العوامل  
في نشر تلك الصناعة ، كما عملن على نشر الشعور بالجمال الفني ، وعلى إشعار  
الناس بالظرف وضروب التفنن في المأكل والملبس والأزياء المختلفة .

وقامت ، إلى جنب الترف والفساد ، حركة استياء تنعى على العهد فسقه ،  
وتشدد النكير على المفسدين . وارتفعت أصوات الذين خانهم الحظ فلم يمدّهم  
بالمال كما أمدّ غيرهم ؛ بل قامت حركة زهد تحقّر الفانيات في سبيل الباقيات ،

(١) طالع المنتخبات ص ٦٩ .

(٢) طالع المنتخبات ص ٦٤ - ٦٧ .

(٣) النخاس : بياع الرقيق . والنخاسة : بيع الرقيق .

(٤) طالع المنتخبات ص ٦٨ .



وتستنكف مما وصلت إليه الأخلاق من الانحطاط ، ومما شاع من فنون الظلم والبغي والفجور .

وإذا نظرنا إلى ذلك العهد من الوجهة الدينية تجلى لنا أن النزعة السائدة هي الحرية ، ولا سيما أن الفلسفة اليونانية كانت قد هبت ريحها فارتفع معها لواء العقل والمنطق في الأقطار (١) ، وكانت الدولة قد ضمت إليها من الشعوب ما اختلفت أجناسهم ودياناتهم من مسلمين متعددي الفرق ، ونصارى مختلفي النزعات ، ومن يهود وصابئة (٢) وزرادشتيين (٣) ومانويين (٤) متبايني المذاهب (٥) وكانت المعتزلة من أشهر الفرق الدينية لذلك العهد ، بل أشهرها على الإطلاق وأشدّها تأثيراً في التحرر الفكري . وظهرت في أوائل القرن الثامن للميلاد في مدينة البصرة حول حلقة الحسن البصري ثم انشقت عنه ، وكان ذلك على يد واصل بن عطاء (٦٩٩ - ٧٤٨ م) وعمرو بن عبيد (٦٩٩ - ٧٦١ م) . وقد تأثرت المعتزلة باللاهوت المسيحي تأثراً جلياً (٦) ، وكان ليوحنا الدمشقي ابن سرجون ( ٧٣٠ م ) أثر واسع فيها . وانصرفت المعتزلة إلى الدفاع عن العقائد الإسلامية دفاعاً شديداً ووضع أصحابها أكثر كتبهم للرد على الرافضة (٧)

(١) طالع المنتخبات ص ٥٢ - ٥٦ .

(٢) « الصابئة » هم الذين تركوا التوحيد إلى عبادة الأصنام وقالوا إنا نحتاج في معرفة الله إلى متوسطات إما روحانية وهي الكواكب وإما جسمانية وهم بشر يأكلون ويشربون . وانتشرت الصابئة عند الآشوريين والبابليين .

(٣) « الزرادشتيون » : أتباع زرادشت ، ظهر بفارس في القرن السادس قبل الميلاد ، ويذهب إلى أن أصل العالم المبدآن المتضادان : يزدان ( النور ) وأهرمن ( الظلمة ) ولن يزالا في صراع حتى يتغلب الخير على الشر . وفلسفة زرادشت مدونة في كتاب يسمى « زندافستا » .

(٤) « المانويون » : أصحاب ماني بن فاثك ( القرن الثالث الميلادي ) ظهر في زمان سابور بن أردشير أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية ويذهب إلى أن أصل العالم النور والظلمة امتزجا بالخلط والاتفاق ، وفرض على أتباعه العشر في الأموال وإقامة الصلاة وترك الكذب والسرقة والقتل والزنى .

(٥) طالع المنتخبات ص ٥٩ - ٦٤ .

(٦) طالع كتاب « المعتزلة » لزهدي حسن جار الله ص ٢٣ - ٣٣ .

(٧) الرافضة : عدة فرق من غلاة الشيعة يجمعهم تكفيرهم أبا بكر وعمر ، وسموا كذلك لأن أنصار زيد بن علي بن الحسين سألوه في أبي بكر وعمر فقال : « لا أقول فيهما إلا خيراً ، إنما خرجت انتقاماً لمقتل جدي الحسين . » فانصرفوا عنه فقال لهم : رفضتموني . ومعظم فرقهم من المشبهة والمجسمة مثل هشام بن الحكم .

والجهمية (١) الجبرية والثنوية (٢) وسائر المجوس . وقد ذكرت امرأة واصل بن عطاء أن زوجها كان ، إذا جنّه الليل ، يصفّ قلميّه يصلي ، ولوح ودواة موضوعان أمامه ، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد في صلاته . قال عمرو بن عبيد : « ليس أحد أعلم بكلام غالبية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدةهرية (٣) والمرجئة (٤) والرد عليهم منه . » ولم يكتب واصل بالرد على المخالفين وهو قابع في بيته بالبصرة ، بل كان يرسل الوفود من أصحابه إلى جميع الجهات لهذا الغرض . وهكذا قامت ضجة عالية بين الفرق الدينية والاجتماعية ، واشتد النزاع بينها ، وشاعت أساليب المساجلة والنقاش ، وكثرت الفرق كثرة يضيق المقام بذكرها كلها ، وفيما ذكرناه منها كفاية :

تلك صورة مصغرة للبيئة الاجتماعية في عهد الجاحظ : تعدّد في العناصر جر انحطاطاً في الأخلاق ؛ واقتصاديات واسعة أدت إلى الترف في المعيشة ، وهو زاده التسرى والرقيق إيغالا في الفسق ، وزاد الحياة الفنية سعة وانطلاقاً ، كما بعث النفوس العالية إلى الاستياء والثورة على الفساد الشائع وإلى الزهد في الفانيات ؛ وفرق دينية ومذاهب متباينة أشهرها المعتزلة .

### ٣ - البيئة الثقافية

كانت البيئة الثقافية من أقوى العوامل في النهضة العباسية ، إذ أخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية في نواحيها المتعددة ويميلونها بمالهم وجاههم . وقد بالغوا

(١) « الجهمية » : مذهب أتباع الجهم بن صفوان ويقول بالجبر ، ونفى اختيار العباد لأفعالهم .

(٢) « الثنوية » : مذهب القائلين بمبدأين أزليين هما النور والظلمة .

(٣) « الدهرية » : مذهب من يقولون بقدوم العالم وقدم الدهر وتدبيره للعالم وتأثيره فيه ، وقد أشير إليهم في القرآن الكريم : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . » وجاء ذكر مذهبهم في الشعر أيضاً على حد قول الشاعر :

الدهر أبلاني وما أبليتني      والدهر غيرني وما يتغير

(٤) « المرجئة » : فرقة من المتكلمين اختلفت في سبب تسميتهم كذلك فقيل لقولهم بتأخير العمل عن الإيمان ، فلا تضرع مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وقيل سميت المرجئة مرجئة لأنهم يرجئون أمر أهل الكبائر إلى الله تعالى .

في إكرام الأدباء فجالسهم ، ولوهم أحياناً المناصب العالية . ثم حذا الأدرء والوزراء حذو الخلفاء في أكبر مدن الدولة ، وكانوا يتنافسون في ذلك كما يتنافسون في فتح دور العلم . وظهر في الجليل الحديد ميل شديد إلى الحياة العلمية ، ولا عجب في ذلك وقد رأينا ما كان هنالك من تمازج مدنيات واختلاط حضارات ، ووعى عام أرففه ما ناله القوم من ثقافات الشعوب المتمدنة .

. أما الثقافات التي كانت شائعة في تلك الأيام والتي كان لها أثر كبير في الأدب فهي ثلاث : الثقافة العربية الخالصة التي تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين كالتفسير والفقه والكلام والتصوف وما إلى ذلك<sup>(١)</sup> ، اعتمادها على الشعر وما يحيط به من العلوم الأدبية كالنحو واللغة وغيرها . ثم الثقافة اليونانية ، وتليها الثقافة الشرقية . ولقد وصلت علوم اليونان وآدابهم إلى الشرق من عهد فتوحات الإسكندر ، فنشر اليونان في الشرق فلسفتهم وطبهم وفلكهم<sup>(٢)</sup> ، وذاعت ثقافتهم أيضاً على يد الفرس . أما الثقافة الشرقية فهي ثقافة معقدة وهي التي نجلدها عند الفرس والهنود والأمم السامية التي كانت منتشرة في العراق ؛ وقد وصلت الثقافة الفارسية بواسطة امتزاج العرب بالفرس وانتقال الخلافة إلى بغداد واشتغال الوزراء والكتاب الفرس بالعربية . وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالدولة بواسطة التجارة والفتوحات التي شملت قسماً كبيراً من الهند ، وبانضمام بعض الهنود إلى الإسلام ، وكان منهم شعراء وعلماء بالعربية كأبي عطاء السندي الشاعر ، وابن الأعرابي<sup>(٣)</sup> . وكان الفرس القناة الثانية التي جرت ثقافة الهند إلى العرب .

وكانت هذه الثقافات المختلفة تؤلف التراث العلمي في ذلك العصر ، وفيها زبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . وكان لا بد للرجل المستنير الذي يعمل في مناصب الدولة إذ ذاك ،

(١) طالع المتخبات ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) طالع المتخبات ص ٥٦ .

(٣) ابن الأعرابي: هو محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي أبو عبد الله (١٥٠-٢٣١) هـ راوية، ناسب، علامة باللغة من أهل الكوفة . كان يحضر مجلسه زهاء مئة إنسان كان يسأل ويقرأ عليه فيجيب من غير كتاب؛ ولم ير أحد في علم الشعر أغزر منه . مات بسامراء ، وله تصانيف كثيرة .



ويقوم في الأمة مقام الرجل القائد ، من أن يأخذ بحظ من هذه الثقافات جميعاً .

ويرجع انتشار تلك الثقافات في البلاد إلى المدارس والترجمات وتشجيع الخلفاء ونشرهم لها . فمدارس جُنْدَيْسابور والرُّها ونَصِيبين وحرَّان كانت تنشر الثقافة اليونانية ، ومدرستا الرها ونصيبين كانتا تزخران بالفلسفة اليونانية والتعاليم المسيحية . وكان في حران جماعة وثنية تسمى الصابئة نبغت في الدراسات اليونانية ، من علمية وأدبية . أما جنديسابور فقد أسس النساطرة فيها مركزاً مهماً للثقافة اليونانية ، ونالت شهرة فائقة في الطب . وكانت هذه المدارس كلها منارات إشعاع في جميع العالم العربي .

وكانت حركة النقل والترجمة<sup>(١)</sup> والنسخ هي القناة الكبرى التي جرت جميع العلوم القديمة إلى الدولة العباسية ، كما كانت المطبعة الحية التي نشرت تلك العلوم في جميع البلاد وجعلتها في متناول الجميع . وقد ساعد الخلفاء وأولو الأمر تلك الحركة المباركة فأتت بأطيب الأثمار ؛ وإذا بأرسطو وأفلاطون وبقراط وجالينس وغيرهم ينطقون بلغة العرب ؛ وإذا كتاباتهم في أيدي الكثيرين توقد في العقول نار نهضة مشمسة . واشتهر من النقلة آل بُخْتِيشوع ، وآل نُحَيْن ، وآل ما سَرْجويه ، وآل نوبخت ، وغيرهم كثيرون ممن كان لهم فضل كبير على العلم وأهله . وقد اعتمد العرب في الفلسفة والطب والهندسة والنجوم والموسيقى على اليونان ، وفي النجوم والسير والآداب والتاريخ والحِكم على الفرس ، واقتبسوا من الهند طبها والعقاقير والحساب والنجوم والأقاصيص والموسيقى ، ومن الأنباط والكلدان الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم ، ومن المصريين الكيمياء والتشريح . ومما يؤسف عليه أن الحركة العلمية العباسية لم تستغل الأدب اليوناني استغلالاً يذكر كما استغلت العلم اليوناني والفلسفة اليونانية ؛ فلم تتعرض لشيء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر ، ولذلك أسباب يضيق عن ذكرها المقام<sup>(٢)</sup> .

(١) طالع المتخبات ص ٥٠ .

(٢) طالع كتابنا « تاريخ الأدب العربي » ص ٢٥٦ .

انتشرت الثقافات الأجنبية المختلفة في العالم العربي ، وكان لكل ثقافة نزعة خاصة . أما العقل اليوناني فميال إلى فلسفة التعليل والتحليل ، ميال إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات ، ميال إلى التعمق والعلم . فكان من البواعث الكبرى على إحلال العقل محلاً عالياً عند العرب في ذلك العهد ، وعلى التصنيف والاشتغال بالعلوم . وأما العقل الهندي فهو ميال إلى التأمل ، والفكر الهندي هو من ثم تأملي شعري أكثر مما هو علمي ، هو فكر تصويري خيالي تمثيلي ، شديد الاتصال بالعاطفة ، وعاطفة الزهد والتصوف عند الهنود قوية لها أثر كبير في حياتهم . فكان العقل الهندي من البواعث الكبرى على الحكمة وشعاب الزهد والقصص عند العرب ، في حين كان العقل الفارسي وعاء حوى العلم القديم كله تقريباً ، فكان مؤلفاً من عنصر فارسي وعنصر يوناني وعنصر هندي . والأثر الهندي في الثقافة الفارسية أوسع من الأثر اليوناني . إلا أن الحضارة الفارسية تغلب عليها المادة . فكان العقل الفارسي من الأسباب التي أشاعت الزخرف والتفخيم والإطناب في الكلام والكتابة ، وتوسيع حقل الموسيقى وآلاتها .

تلك كانت البيئة الثقافية في عهد الجاحظ ، وتلك كانت الحال الاجتماعية والسياسية : تمازج ونزعات مختلفة ، وفوران في كل الحقول ، ومذاهب وفروع في المجتمع والسياسة والدين والعلوم ، وتبسط في كل شيء ، وتداخل وتنافر . ولقد عاش الجاحظ في تلك البيئات مصوراً ومؤرخاً ، يحيا ويراقب ، يختبر وينظر ، يمتزج وينعزل ، وهكذا كان العصر كله مصوراً في ذاته وفي كتبه ، تتجلى فيه وفيها النزعات والثقافات ، فكان بذلك علماً من أعلام التاريخ والأدب ، وركناً من أركان العلم والتحرر .

## الفصل الثاني المجاهظ في عصره

### ١ - حياة المجاهظ

١ - أصل المجاهظ وطلبه للعلم

اختلف المؤرخون في أصل المجاهظ وفي تعيين سنة ميلاده ، وقالوا في ذلك أقوالاً مضطربة . فذهب بعضهم إلى أنه من أصل عربي ، وذهب بعضهم الآخر إلى أنه من العناصر الإفريقية التي تداخلت في العنصر العربي ، والفريقان ينسبانه إلى كنانة أصيلاً أو مولى . وقد أجمع المؤرخون من مثل ابن الأنباري وابن عساكر وياقوت الرومي وغيرهم على أن المجاهظ كنانى لثى نسبه إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة ؛ وقالوا إنه كان مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكنانى<sup>(١)</sup> . وكان جده أسود يقال له فزارة ، وكان جمالا لعمرو بن قلع الكنانى . أما كنيته فقد قال أبو بكر العمري : سمعت المجاهظ يقول : « نسيت كنيتي ثلاثة أيام ، فأتيت أهلى ، فقلت : بمن أكنى ؟ فقالوا : بأبي عثمان . »

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر ، الملقب بالمجاهظ لبروز عينيه من حدقتيهما الواسعتين ، في البصرة نحو سنة ٧٧٥ م - ١٥٩ هـ . وتوفي والده وهو بعد حديث السن . ولما شب طلب العلم أولاً في الكتاب مع أولاد القضاة ، ثم راح يتعيش بعمل يديه فيبيع الخبز والسمك بالبصرة وهو لا يألو جهداً في طلب العلم ومطالعة الكتب<sup>(٢)</sup> . وكانت البصرة لذلك العهد أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد ، يجتمع في مسجدها طائفة حسنة من العلماء وأرباب النحو واللغة

(١) ياقوت : « معجم الأدباء » ١٦ ص ٧٤ .

(٢) المصدر نفسه .



والأدب عُرفوا « بالمسجديين »<sup>(١)</sup> ، فأقبل إليهم الجاحظ يجالسهم ويأخذ عنهم الكثير بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية ؛ وما إن أيفع<sup>(٢)</sup> حتى تلقى الفصاحة وأساليب التعبير شفاهاً عن خطباء العرب في المربد<sup>(٣)</sup> وقد ألف التردّد إليه منذ حدثته . وكان إلى ذلك يكثرى<sup>(٤)</sup> حوانيت الوراقين ويبست فيها أحياناً للمطالعة<sup>(٥)</sup> .

ولما اجتمع له قدر صالح من العلم والأدب قصد بغداد واتصل فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة .

وتردد إلى مجالس الأدباء من مثل ابن وهب وابن الزيات ، فوجد عندهم ، على ما قال هو نفسه ، ما لم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب ، وبهم عرف ماهية الشعر ، وقام بحق الأدب والكتابة .

ب - الرجل الكاتب والعالم

ظل الجاحظ يزاول فنون الأدب والأخبار واللغة والحكمة والكلام ، ويعمل الفكر ويحلّل ، ويتوسع في ما حصّله ، حتى تمت له ثقافة راقية ، وتنبت عقله ، فتمكن من التعرض لقضايا خطيرة في الدين ، وكان له مذهب وأتباع ؛ وشرع يؤلف الكتب ، وكان في أول أمره ينسبها إلى ابن المقفع<sup>(٦)</sup> وسهل بن هارون حتى تسير .

(١) « المسجديون » قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم وطال غشيانهم له فعرفوا به ونسبوا إليه . . . وكانوا خليطاً من الناس منهم الشعراء ومنهم الرواة ومنهم مصطنعو الحكمة . . . وكانوا لا يغرقون في فن ولا يتقيدون بنوع من العلم . . . ويظهر أن هؤلاء المسجديين كان لهم أثر غير قليل في التوجيه الأدبي لكثير من أدباء ذلك العهد ، ففي أخبار أبي نواس أنه لما شب وكبر صحب أهل المسجد والمجان ، وأكبر الظن أن المقصود بأهل المسجد هم المسجديون ، وكذلك الجاحظ كان مجلسه في أول أمره إلى هؤلاء المسجديين . (البخلاء . تحقيق طه الحاجري) .

(٢) أيفع الغلام : ترعرع وناهر البلوغ فهو يفع ويافع .

(٣) المربد : سوق قرب البصرة كان يختلف إليه الشعراء والخطباء وهو متسع كانت الإبل تربد فيه أي تربط للبيع وهو مجتمع العرب ومتحدثهم . وأشهر أسواق العرب : « عكاظ » بين نخلة والطائف و « مجنة » على أميال من مكة و « ذو الحجاز » بمعنى خلف عرفات .

(٤) يكثرى : يستأجر .

(٥) طالع المنتخبات ص ٤٥ .

(٦) طالع المنتخبات ص ٤٤ - ٤٥ .

فقد روى المسعودى فى كتابه « التنبية والإشراف » أن الجاحظ كان يقول :  
 « كنت أولف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسى ،  
 فلا أرى الأسماع تصغى إليه ، ولا الإرادات تتيم نحوه ، ثم أولف ما هو  
 أنقص منه رتبة ، وأقل فائدة ، وأنحله<sup>(١)</sup> عبد الله بن المقفع أو سهل بن  
 هارون ، أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون  
 على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لشيء إلا لنسبتها للمتقدمين ، ولما  
 يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو فى عصرهم ومنافسته على المناقب التى  
 تُعنى بتشبيدها . »

وما إن كان القرن التاسع ( الثالث الهجرى ) حتى طارت للجاحظ شهرة  
 كبيرة بين كتاب عصره ، وترامت تلك الشهرة إلى أذن المأمون — وقد قرأ للجاحظ  
 « كتاب الإمامة » وأعجب به — فاستقدمه وسأله أن يكتب له رسالة فى  
 العباسية والاحتجاج لها .

ولما رأى المأمون ما للجاحظ من مقدرة على الكتابة ومن سعة فى الثقافة ، أراد  
 أن يسند إليه ديوان الرسائل وهو من أهم ما يدور عليه محور السياسة العامة للدولة  
 لا يتولاه إلا الخاذق الذى ضرب بالسهام الوافرة فى مختلف العلوم والآداب ،  
 وصاحب السياسة والتدبير ، والمتفوق فى صنوف البلاغات وضروب الإبانات .  
 غير أن الجاحظ لم يمكث فى ذلك المنصب سوى ثلاثة أيام<sup>(٢)</sup> ، وكأنه لم  
 يستطع الخضوع لنظم اللواوين وما يقتضيه سير العمل فيها ، ولا تمكن من  
 الإقلاع عن العبث فى عمل يتطلب الرصانة والوقار ، ولا احتمال منافسة الحساد  
 الذين ثارت عليه حفاظهم<sup>(٣)</sup> خوفاً على شهرتهم ومنزلتهم فى الدولة ومجالس الأدب .  
 وكان سهل بن هارون يقول : « إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أقل نجم  
 الكتاب . »

خرج الجاحظ من ديوان الخليفة وآثر أن يعيش مطلقاً من كل قيد .  
 وما هى إلا سنوات حتى اتصل اتصالاً مكيناً بمحمد بن عبد الملك

( ١ ) أنحله : أنسبه إلى

( ٢ ) ياقوت : « معجم الأدباء » ، الجزء ١٦ ص ٧٨ — ٧٩ .

( ٣ ) الحفاظ جمع حفيظة : الغضب والحمية فيما يحفظ .

المعروف باين الزيات وزير المعتصم ثم الواثق من بعده . وكان ابن الزيات من أكابر رجال الأدب والسياسة ، فكتب له الجاحظ ، ومدحه ، وأهداه « كتاب الحيوان » (١) فأجازه الوزير بخمسة آلاف دينار . وفي تلك الأثناء قام الجاحظ بأسفار إلى دمشق وأنطاكية وربما وصل إلى مصر أيضاً ، فزادته الأسفار والضرب في الآفاق اطلاعاً وسعة معرفة ، ومهّرت خياله بصور جديدة .

ولما مات الواثق وتولى المتوكل ، كان في نفس المتوكل من ابن الزيات شيء ، وقد جرى سنة ٨٤٧ م أن منافس ابن الزيات ، القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، استمال الخليفة ، وهو عدو المعتزلة والحرية الفكرية ، فأسقط ابن الزيات وفتك به . فهرب الجاحظ ، ولكنه قبض عليه . وقد جاء في معجم الأدباء لياقوت (٢) عن أبي عبد الله المرزباني أنه قال : « حدث إسحاق الموصلي وأبو العيناء قال : كنت عند أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات ، فجئني بالجاحظ مقيداً ، وكان من أصحاب ابن الزيات ، وفي ناحيته ، فلما نظر إليه قال : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوى ، وما فتّني باستصلاحك ولكن الأيام لا تُصلح منك لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك . فقال له الجاحظ : خفّض عليك ، أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لي عليك ؛ ولأن أسىء وتحسن أحسن عنك من أن أحسن فتسيء ؛ وأن تغفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام مني . فقال له ابن أبي دؤاد : قبّحك الله ، ما علمتكم إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذهم ألم شديد » ؟ قال : تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضي ، فقال : جيئوا بحدّاد . فقال : أعز الله القاضي ، ليفكّ عني أو ليزيدني ؟ فقال : بل ليفكّ عنك . فجئني بالحدّاد ، فغمزه بعض

(١) طالع ص ٣٤ من هذا الكتاب .

(٢) الجزء السادس عشر ص ٧٩ .



أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ. ، ويطيل أمره قليلاً. فلطمه الجاحظ ، وقال : اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس يجزع ولا ساجة<sup>(١)</sup> ؟ فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه .

وقال ابن أبي دؤاد لمحمد بن منصور وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال : يا غلام ، صرّ به إلى الحمام ، وأمرط عنه الأذى ، واحمل إليه تحت ثياب وطويلة ، وخفّاً ، فلبس ذلك ، ثم أتاه فتصدر في مجلسه ، ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان !

وقدّم الجاحظ لابن أبي دؤاد كتاب « البيان والتبيين »<sup>(٢)</sup> فأعطاه فيه ابن أبي دؤاد خمسة آلاف دينار . ولما فُلع القاضي وخلفه في القضاء ابنه أبو الوليد لزمه الجاحظ إلى أن صرف عن القضاء سنة ٨٥١ م .

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وقدّم له بعضاً من كتبه منها « كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة . » وكانت بين الرجلين مودة ومراسلة . وطالما أثنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل وأخذ له الجوائز ؛ إلا أن المتوكل لم يقربه منه للدمامة خلقه .

ج - الشيخ العليل

واشتدت وطأة السنين على الجاحظ ووهنت قواه ، وأصيب بفالج نصفي ، فعاد إلى البصرة حيث لزم بيته سجين الهرم . حدث المبرد قال : « دخلت على الجاحظ في آخر أيامه ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمنشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس<sup>(٣)</sup> لو طار الذباب بقربه لآله ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها »<sup>(٤)</sup> .

( ١ ) ساجة واحدة الساج : شجر عظيم صلب الخشب جمعه : سيجان . ويطلق الساج على الخشب مطلقاً .

( ٢ ) طالع ص ٢٨ من هذا الكتاب .

( ٣ ) أى مصاب بالنقرس : داء يأخذ في الرجل ، ويقال هو ورم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها .

( ٤ ) « معجم الأدباء » الجزء ١٦ ص ١١٣ - « وفيات الأعيان » الجزء ١ ص ٤٩١ .

وهرع العلماء والأدباء إلى زيارة الشيخ العليل ، معلّم العالم العربي بمجمله وتوافدوا من البصرة وبغداد وسواهما من البلدان ، وكان المبرّد صاحب « الكامل » من جملة الزائرين .

وأخذ ذلك المصباح يخبو شيئاً فشيئاً ، وأخذ نوره يتضاءل حتى انطفأ تاركاً في البلاد نور العلم والثقافة الواسعة . وهكذا مات الجاحظ معلّم العقل والأدب سنة ٨٦٨ م - ٢٥٥ هـ . وقد انتهت عليه الكتب يوماً وهو جالس بينها يقرأ فقضت عليه<sup>(١)</sup> . لقد لحده ميتاً بعد أن كانت سلوته في حياته وشغله الشاغل إلى ساعة مماته .

## ٢ - شخصية الجاحظ

### ١ - شخصيته الأخلاقية

إن من استقرى أخبار الجاحظ وقلب صفحات آثاره وقف على شخصية عجيبة في انفتاحها واتساعها وغنى ما لديها من طاقة ووسائل . ولئن كان الجاحظ قبيح المنظر ، مشوّه الوجه ، ناثي العينين ، لقد جمع إلى قبح الخارج صفات كثيرة جعلت منه رجل العصر ، يروق الكبير والصغير والعالم والجاهل . كان مطبوعاً على الظرف والفكاهة ينظر إلى الأمور نظراً لا اكترائياً ، ليس هو نظر السوداوي ولا نظر العصبي ؛ وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم ، يبدو عليه السرور وحب الدعابة وخفة الروح ، وينظر إلى الأمور كما هي في واقعيتها كما ينظر إلى الناس نظر الخبير بطباعهم وأخلاقهم فيحاسن الكبراء دون إسفاف ويجنب مخاشنتهم تفادياً من شرهم ، ويحلم عن الأشرار طبعاً وتطبعاً ، ويتعد عن الحاسدين للتخلص من أشراكهم . وهو أبداً لطيف المعشر ، حلو الحديث ، حسن المحاضرة ، حاضر الجواب ، سريع النكتة ، ساخر وسخره ناعم<sup>(٢)</sup> .

(١) « شذرات الذهب » ٧ : ١٢٢ .

(٢) طالع المتخبات ص ٩٦ - ٩٨ .

وكان إلى ذلك يحب اللهو وسماع القيان والمغنين لا يأنف إلا مما يضيع الوقت سدى ، والوقت عنده أثنى من المال ، يحرص عليه الحرص الشديد .

#### ب - شخصيته الثقافية

كان الجاحظ ذا ثقافة واسعة جداً تجعل منه دائرة معارف حية ، فقد وعى في صدره جميع معارف عصره في الأدب والدين والعلم والفلسفة . قال أبو بكر أحمد بن علي (١) : « كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام (٢) وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبخر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا . وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين ، وفي حكاية المخالفين ، والآداب والأخلاق ، وفي ضروب من الجدل والهزل ، وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها . وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول ، وشحن الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور . »

وكانت مصادر ثقافة الجاحظ كثيرة منها أساتذته (٣) ، وما طالعه من كتب العرب واليونان والفرس والهنود وغيرهم ، ثم تجاربه ومعايناته . أما أساتذته فعرب المربد (٤) الخليلي الذي كان يصغى إلى أقوالهم ، وهو حدث ، قرب البصرة ، وأبو عبيدة (٧٢٨ - ٨٢٤ م) الذي قال فيه الجاحظ : « لم يكن

(١) أبو بكر أحمد بن علي المعروف بابن الإخشيد من أفاضل المعتزلة وزهادهم . وكان فصيحا له معرفة بالعربية والفقه . من مؤلفاته : « نقل القرآن » ، و « الإجماع » ، و « اختصار تفسير الطبري » . توفي سنة ٩٣٧ م - ٨٣٢٦ .

(٢) النظام : هو أبو إسحق إبراهيم بن سيار بن هاني البصري (١٨٥ - ٢٢١) عالم فيلسوف من كبار أئمة المعتزلة واسع الاطلاع تبعته فرقة من المعتزلة نسبت إليه وسميت « النظامية » . أما شهرته بالنظام فأشياءه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام وخصومه يقولون إنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة .

(٣) ياقوت : « معجم الأدباء » الجزء ١٦ ص ٧٤ - ٧٥ .

(٤) انظر الحاشية ٣ ص ١٦

في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم منه»<sup>(١)</sup>، والذي له من المؤلفات نحو مئتين في الحمام ، والحيات ، والعقارب ، والحيل ، والإبل ، والزرع ، والأصمعي ( ٧٣٩ - ٨٣٠ م ) وهو صاحب لغة ونحو ، وإمام في الأخبار والنوادر والملح والغرائب ، جمع شتيت اللغة في الشجر ، والنبات ، والإبل ، والشاء ، والوحوش ؛ وأبو زيد الأنصاري ( - ٨٣٠ م ) وهو من أئمة الأدب ، غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب ، وقد ألف في القوس ، والترس ، والإبل ، والوحوش ، وخلق الإنسان ، والمطر ، والنبات ؛ وأبو الحسن الأخفش ( - ٨٣٠ م ) وهو من أكابر أئمة النحو في البصرة ، وتخرج الجاحظ في الفلسفة والدين على أبي إسحاق النظام ( - ٨٣٥ م ) وقد قال عنه تلميذه : «الأوائل يقولون : في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحاق النظام» . وكان النظام مطبوعاً على البحث عن أصل كل شيء ، وعن علته ، ولا يقتصر على الانقياد والمحاكاة ؛ ولم يكتف بطلب الفلسفة والكلام بل عكف على طلب العلم ولا سيما علم الطبيعة . وكان يؤثر الحمل القصيرة في كتابته ، ويعتبر الشك أساساً للبحث<sup>(٢)</sup> ، ويستخدم المنطق في بحثه عن الحقائق ، ويحارب أوهام العامة وخرافاتهم . وكان واسع الحرية في التفكير ، شديد الجراءة على المحدثين ، قليل الإيمان بصحة رواية الحديث وقد أثر النظام في الجاحظ تأثيراً بليغاً ، وكانت طريقته في التحري من أركان طريقة الجاحظ العلمية . ولم يكتف الجاحظ بالأساتذة الأعلام ، بل راح ينقب ويطلع ما ترجمه ابن البطريق ، وحنين بن إسحاق ، وبختيشوع ، وغيرهم من مشاهير النقلة ، قال أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته ، كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للنظر<sup>(٣)</sup> . »

(١) « البيان والتبيين » ١ : ٢٢٤ . وقد جلس الجاحظ إلى أبي عبيدة كما ورد ذلك في

« البيان » ٣ : ٢٠٦ .

(٢) « الشك أساس البحث » كان مذهب النظام وهو المذهب الذي نادى به الفيلسوف الفرنسي

ديكرت بعد النظام بثمانية قرون .

(٣) « معجم الأدباء » لياقوت ، الجزء ١٦ ص ٧٥ .



كان الجاحظ مؤمناً حسن الإيمان ، يرى أبدأً في الخلائق يد الخالق وحكمته . وكان معتزلياً يُشهد له بالتفوق في الكلام والحجة . قال ابن قتيبة : « إن الجاحظ آخر المتكلمين وأحسنهم للحجة ، حتى إنه ليعظم الصغير ويصغر العظيم (١) . » وأهم النقاط التي اشتهر بها الجاحظ ما يلي :

كان الجاحظ يقول بقدوم المادة على نحو ما كان يذهب إليه قدامى فلاسفة اليونان الطبيعيين . وقال الجاحظ بالطبائع للأجسام متبعاً في ذلك آراء الطبيعيين الأقدمين من الفلاسفة ، وأوجب لها أفعالا مخصوصة ، فقال إن العباد لا فعل لهم سوى الإرادة ، أما سائر الأفعال فتقع منهم طباعاً لا اختياراً . وذهب إلى أن الله تعالى لا يقدر أن يُعرى الجسم من أفعاله . وبسبب إثباته الطبائع للأجسام قال إن الله لا يدخل النار أحداً ، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبيعتها وتمسكهم في نفسها على الخلود ، ثم تُحوّلهم إلى طبيعتها وتجعلهم جزءاً منها فلا يبقون فيها مخلدين في العذاب .

وقد نفي الجاحظ العصمة عن الأنبياء وخالف بذلك أكثر المعتزلة الذين يقولون إن ذنوب الأنبياء خطأ من جهة التأويل والاجتهاد أو السهو ، ولا يجوز عليهم أن يفعلوا قصداً ما علموا أنه ذنب (٢) .

\* \* \*

تلك كانت حياة الجاحظ ، وتلك صورة مصغرة لشخصيته الجبارة التي ملأت تاريخ الأدب العربي بعقلها الواسع وثقافتها البعيدة الغور . وقد تجلت تلك الشخصية في مؤلفات الجاحظ الكثيرة .

(١) « تأليف مختلف الحديث » ص ٧١ .

(٢) طالع كتاب « المعتزلة » لزهدي حسن جارا الله ، ص ١٤٥ - ١٤٨ .

## الفصل الثالث جوانبُ الجاحظ

### ١ - آثار الجاحظ

خلف لنا الجاحظ مؤلفات كثيرة ما بين كتب ورسائل وقد قيل إن آثاره هذه بلغت ما ينيف على ثلاث مئة وخمسين كتاباً رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد ، سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (١). وهي ، وإن لم تكن كلها له ، تؤلف موسوعة علمية وأدبية . ومما يؤسف عليه أنها لم تصل إلينا كلها ، فقد ضاع منها عدد يذكر ، وأما ما وصل إلينا منها فقد طبع معظمه ولا يزال بعضه مخطوطاً ومبعثراً في خزائن شتى بين الشرق والغرب . وإنه لمن الصعب جمع تلك المؤلفات في فئات مرتبة على حسب مادتها ، لأن الكثير منها مختلف الموضوعات ، متعدد المعاني . ومن ثم كان تقسيمنا التالي لآثار الجاحظ على وجه التغليب .

#### أ - في الفلسفة والاعتزال والدين

« كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال » وضعه الجاحظ لتقرير مذهب الاعتزال ، و « كتاب الاعتزال وفضله » ولعل هذا الكتاب هو المسمى أيضاً « فضيلة المعتزلة » ، والذي ردّ عليه ابن الراوندي بكتابه « فضيحة المعتزلة » ، و « كتاب خلق القرآن » ، و « كتاب آي القرن » ، و « كتاب الردّ على اليهود » و « كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » ، وهو يبحث في تعليل الأشياء الطبيعية وما في الكائنات من الدلائل على وجود الصانع إلخ . . .

#### ب - في السياسة والاقتصاد

« كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب » ، و « رسالة في مناقب الترك »

---

( ١ ) « مرآة الزمان » ، الورقة ٥٨ من المجلد الثالث من الجزء العاشر ( مصورة دار الكتب

المصرية ) .

وعامة جند الخلافة « ورسالة في الخراج » و « كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات » و « كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعشاب » إلخ . . .

ج - في الاجتماع والأخلاق

« رسالة في إثم السكر » و « كتاب أخلاق الشطار » و « كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة » و « كتاب خصومة الحول والعُور » ، و « كتاب البخلا » . . .

د - في التاريخ والجغرافية والطبيعات والرياضيات

« كتاب الأخبار وكيف تصح » و « كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية » ، و « كتاب الأمصار » و « رسالة في الكيمياء » و « كتاب المعادن » ، و « كتاب نقض الطب » و « كتاب الحيوان » .

هـ - في العصبية وتأثير البيئة

« كتاب القحطانية والعدنانية » و « كتاب العرب والعجم » و « رسالة في فخر السودان على البيضان » و « كتاب مفاخرة السودان والحُمران » إلخ . . .

و - في الأدب والشعر والعلوم السائية والأدبية

« كتاب البيان والتبيين » إلخ . . .

ز - في موضوعات شتى

« رسالة التَّربيع والتدوير » و « رسالة في العشق والنساء » و « كتاب الإخوان » إلخ . . .

\* \* \*

تلك بعض آثار الجاحظ ، وإن من أجال النظر في عنواناتها يلاحظ ما هنالك من سعة وتنوع . فهي تشمل العصر بكامله : في سياسته ، وأخلاقه ، ونزعاته ، ومذاهبه ، وعلومه في أصولها وفروعها . وإنما نقصر درسنا على إحدى رسائل الجاحظ وهي « رسالة التربيع والتدوير » ، ثم على ثلاثة من كتبه هي « البيان والتبيين » ، و « البخلاء » ، و « الحيوان » .

### رسالة الترييع والتدوير<sup>(١)</sup>

هي رسالة كتبها الجاحظ في هجاء أحمد بن عبد الوهاب ، فنعتة بالعرض والضخامة دون الطول وفصل لذلك شكل الترييع والتدوير الذي سميت به الرسالة. وقد وصف ابن عبد الوهاب بأنه من بجيلة ومن أصحاب صالح بن علي وسليمان ابن وهب وندماء جعفر الخياط ، وقال إنه من الرافضة المشبهة ، ونعته بأنه « يعدّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب » . وذكر أنه كان يُخاشنه ويطاوله . ولأجل ذلك كله أنشأ هذه الرسالة يتنادر بها على ابن عبد الوهاب ويصف ما هو عليه من دمامة الخلق وقبح التركيب والجهل ، ويُعاريه<sup>(٢)</sup> بمئة مسألة يطلب إليه الجواب عنها ، وقد ضمن أسئلته جميع معارف عصره المشككة ، سواء في المنطق والفلسفة ، أم في الكيمياء والصناعة ، أم في الإنسان والحيوان ، أم في تاريخ العرب وتاريخ غيرهم من الأمم ؛ وقد أكثر فيها من الخرافات والأساطير .

وطبعت هذه الرسالة مع « رسالة في مناقب الترك » و « رسالة في فخر السودان على البيضان » ، بليدن سنة ١٩٠٣ ، ثم بمصر ضمن « مجموعة رسائل » سنة ١٣٢٤ هـ ، ثم بمصر أيضاً سنة ١٩٣٣ في « رسائل الجاحظ » .

#### ١ - قيمتها العلمية

تتجلى لنا في هذه الرسالة سعة اطلاع الجاحظ . فقد استقى معلوماته فيها من تاريخ العالم عموماً وتاريخ العرب وأساطيرهم خصوصاً ، ومن القرآن والحديث ، ومن كتب الفلسفة والعلوم اليونانية والفارسية وغيرها . وقد ذكر المؤلف في رسالته أهم القضايا الفلسفية والعلمية والتاريخية ، فعرض لمشكلة المعرفة ورأى أن « الخطأ كثيرٌ غامرٌ ومُستولٌ غالبٌ ، والصواب قليلٌ خاصٌ ، ومُقموعٌ مُستخَفٌ » ، وأن الحواس تخطئ وتُضل : « كعمري إن العيون كتُخطئُ

( ١ ) طالع المتخبات ص ٩٦ .

( ٢ ) عاياه : ألقى عليه كلاماً لا يهتدى لوجهه .



وإنّ الحواس لتكذبُ ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانةُ الصحيحةُ إلا للعقل . . . » وعرضَ لقضية أصل الإنسان وما بينه وبين القرد من تشابه ، وقضية الألوان فقال : « وخبرني عن لون ذنب الطاووس ما هو ، أتقولُ بأنه لا حقيقة له وإنما يتلونُ بقدرَ المقابلة ، أم تقولُ إنَّ هناكَ لوناً بعينه والباقي تخيلٌ » . وعرضَ لانتقال الصوت ، وللمد والجزر وأثر القمر فيهما « فإنما يكون الجزر والمدّ على مقاديرَ تجذبه للماء وإرساله له » . وعرضَ للمرأة والصورة التي تعكسها أمي خيالية أم حقيقية ؛ وللقمر ومحاقه ، إلى غير ذلك مما يُدهش . إلا أن هذه القضايا التي يوردها الجاحظ ، لا يحلها في هذه الرسالة ، وهو يحيل صاحبه فيها إلى سائر كتبه التي تعطيه حلاً لكل شيء وتبرهن على سعة علمه . ثم إن الجاحظ يورد بعض تلك القضايا على سبيل التهكم ، ومن ذلك قضية إدراك الحواس مثلاً ، فهو يذكر أنها تخطيء منهكماً . ومهما يكن من أمر فالرسالة مفعمة بالمعلومات في مختلف فروع العلم ، مما يجعل للجاحظ محلاً رفيعاً في دولة المعرفة لتلك الأيام .

#### ب - قيمتها الأدبية الفنية

وإلى جنب قيمة الرسالة العلمية نجد لها قيمة أدبية فنية كبيرة . فقد باغ الجاحظ من سخريته بابن عبد الوهاب ما لم يبلغه كاتب ولا شاعر في اللغة العربية من سخريته بشخص من الأشخاص .

أما أسلوبه الهجائي فلم يكن عن طريق السب والشتم ، بل عن طريق التهكم والسخرية اللاذعة . وهو يعتمد في سخريته إلى المفارقات والمتناقضات مستعيناً على ذلك بضروب من الجدل والاحتجاج والحوار ، وضروب من السفسطة والمغالطة والمقابلة بين الحقائق بعضها وبعض ، أو المقابلة بين الرجل وأشياء أخرى .

فبواسطة المفارقات والمتناقضات استطاع الجاحظ أن يشوّه جسم ابن عبد الوهاب وعقله ، ويصوره لنا تصويراً « كاريكاتورياً » مضحكاً ، فيقول مثلاً : « ومن غريب ما أعطيتَ وبديع ما أوتيتَ أنا لم ترَ مقدوداً واسع الحفرة (١) »

(١) الحفرة : جوف البطن وما وسع البطن والخصبين .

غيرك ، ولا رشيقياً مستفيضاً الخاصرة سواك ! فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب . فيا شعراً جمع الأعاريض<sup>(١)</sup> ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول .

ويأخذ الجاحظ بالحوار والجدل فيتسع في فكرة الطول والقصر اتساعاً شديداً ، فيقف تارة في جانب القصر فيحتج له ، ويقف تارة في جانب الاعتدال ، وقد يقف في جانب الطول ، ويدلي في كل ذلك بالحجج والبراهين كأنه يناقش مسألة علمية ، وكأنني بالجاحظ ، على حدّ « قول شوقي ضيف » : « أحال أحمد بن عبد الوهاب إلى مشكلة من مشاكل الاعتزال أو قل إلى مشكلة من مشاكل الفلسفة . . . إذ يتناوله مرة بالطول ومرة بالعرض ، وهو أثناء تناوله يمدّه تارة ، ويقصره تارة أخرى ، وتارة تالفة يبعجه<sup>(٢)</sup> في مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنع بصاحبه من تشويه . »

وهو يُكثر في كل ذلك من السفسطات ، فيأخذ بحجج وأقيسة غير صحيحة ، وهو عالم بعدم صحتها ، فيفصلها كالمؤمن بها ، ضاحكاً في دخيلته من كلامه ، مثيراً معه الضحك . وهكذا برهن الجاحظ في هذه الرسالة عن فنّ رفيع ، ومقلرة فلسفية عجيبة ، وبيان شحذته الثقافة ، ولباقة في الحديث نادرة ولكن حديثه كثير التكرار والاستطراد .

### كتاب البيان والتبيين

١ - ما هو

هو كتاب في الأدب من آخر ما ألف الجاحظ ، يتضمن مختارات من الأدب من آية قرآنية أو حديث أو شعر أو حكمة أو خطبة ، ممزوجة بما له من آراء في مسائل مختلفة . قدّمه الجاحظ إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد . وزعم ياقوت أن المؤلف وضع من هذا الكتاب نسختين كانت الثانية منهما أصح وأجود . وقد طبع الكتاب في مصر سنة ١٩٢٦ في ثلاثة أجزاء .

(١) المديد والبسيط والطويل والمتقارب أسماء لبعض بحور الشعر . والأعاريض جمع عروض وهي الجزء الأخير من الشطر الأول من البيت ، فيتلاعب الجاحظ بهذه الألفاظ في معنيها مورياً منهكاً .

(٢) بجمع البطن : شقه .

## ب - أقسامه

تشيع في هذا الكتاب ، كما في سائر كتب الجاحظ ، فوضى في التأليف ، لا نستطيع معها حصر موضوعاته في أقسام متسلسلة ؛ فسنكتفي بإيراد خلاصة ما في أبواب الكتاب من موضوعات . فالجاحظ يمزج في كتابه علوم البلاغة بالأدب والتاريخ .

أما ما يرجع إلى البلاغة فكلام على ماهية البلاغة ، وعلى نعمة الفصاحة ، ثم على عيوب اللسان والمعنى<sup>(١)</sup> ، كاللحن<sup>(٢)</sup> ، واللكنة<sup>(٣)</sup> ، والفأفة<sup>(٤)</sup> ، والتمتمة<sup>(٥)</sup> ، والتشديق<sup>(٦)</sup> ، والتعير<sup>(٧)</sup> ، والتعيب<sup>(٨)</sup> . ويلحق بالبلاغة أيضاً الكلام على الخطابة وعيوب الخطيب من فحاحة<sup>(٩)</sup> وسعلة ، والأسنان وعلاقتها بالخطابة . ويلحق كذلك بالبلاغة ما يرجع إلى موسيقى الكلام من حروف وألفاظ متنافرة ، ومن سجع وما إلى ذلك .

وأما ما يرجع إلى الأدب فإيراد الكثير من كلام العرب في العهد الراشدي والأموي والعهد العباسي : من شذرات مأثورة منتقاة ومن خطب بليغة . أما ما يرجع إلى التاريخ فكثير من أخبار الخطباء والعلماء والأمراء والكهان والنسك وغيرهم .

## ج - قيمته التاريخية

في هذا الكتاب تظهر نزعة الجاحظ العربية ، فهو يرد على الشعوية ،

- 
- (١) المعنى : الحصر في المنطق أى عدم الإفصاح .
  - (٢) اللحن : الخطأ في الإعراب ومخالفة وجه الصواب .
  - (٣) اللكنة : الثقل في اللسان .
  - (٤) الفأفة : الإكثار من الفاء في الكلام والتردد فيها .
  - (٥) التمتة : التعجيل في الكلام من غير إفهام .
  - (٦) التشديق : هو أن يلوى المتكلم شدة لتفصح .
  - (٧) التعير : إخراج الكلام من الخلق .
  - (٨) التعيب : إخراج الكلام من قعر الخلق .
  - (٩) النحنحة : تردد الصوت في الصدر .

ويكثر من إيراد ما للعرب من مظاهر البلاغة . فهو في موقف معاكس لزعماء الثورة التجديدية ، وهو مع ذلك يضيف في كتابه إلى الثقافة العربية الواسعة عناصر مختلفة مما تقدمه الثقافات الأخرى اليونانية والفارسية والهندية وغيرها ، حتى يمكننا القول إن كتابه مزاج من ثقافات مختلفة تغلب عليه الثقافة العربية ، فهو يعرض آداب العرب والفرس ، وحكم الهنود ، ونصائح اليهودية والمسيحية ، وهو يتكلم على مذهب التناسخ<sup>(١)</sup> ، وينقل أقوالاً لداود والمسيح ، ويذكر عادة الرهبان في اتخاذ العصا وعادة الجاثليق<sup>(٢)</sup> في اتخاذ القناع والمظلة والعكاز والعصا ، كما يذكر أن للهنود كتباً في الحكم والأسرار ، وأن لليونان منطقاً يُعرف به الخطأ من الصواب ، إلى غير ذلك من المعلومات الواسعة .

#### د - قيمته الأدبية

لا شك أن كل فصل من فصول الكتاب فوضى لا تُضبط واستطراد لا يُحدّ ، فالجاحظ لا يرعى للوحدة التأليفية نظماً ولا يُقيم لها وزناً ، إلا أن للكتاب قيمة حقيقية جعلت له محلاً خاصاً ما بين أصول فنّ الأدب وأركانه حتى قال ابن خلدون : « سمعنا من شيونخنا في مجالس التعليم أن أصول فنّ الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرّد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها »<sup>(٣)</sup> .

(١) « التناسخ » : مذهب القائلين بانتقال الروح من شخص إلى شخص ثواباً أو عقاباً وبأن الجنة والنار في هذه الأبدان .

(٢) الجاثليق والجاثليق : متقدم الأساقفة ، جمه : جثالقة .

(٣) « مقدمة ابن خلدون » ص ٥٥٣ طبعة بيروت .



## كتاب البخلاء

١ - ما هو

هو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ أخبار البخلاء و « المقتصدین » ،  
فصور حالاتهم المختلفة كما شاهدها أو بلغه خبرها ، مورداً طرائف مشاهيرهم ،  
متنادراً بمُلح<sup>(١)</sup> البخلاء من العلماء والأدباء ، مثبتاً ما يلحق ذلك من مناظرات  
بين الكرم والبخل ، وغير ذلك من الفوائد عن آداب العرب وعاداتهم في مآدب  
الضيافة . وقد صدر الكتاب برسالة سهل بن هارون في البخل . طُبِعَ كتاب  
البخلاء مراراً ، وكان أول من طبعه المستشرق فان فلوطن Von Vloten  
وذلك في ليدن سنة ١٩٠٠ ثم طبع بمصر ثم بدمشق سنة ١٩٣٨ .  
وفي سنة ١٩٤٧ تولى طه الحاجري إصدار طبعة علمية جديدة للكتاب .

ب - الباعث على وضع الكتاب

يذكر لنا الجاحظ في مقدمة كتابه أن ما حمله على وضعه هو الفائدة التي  
أدّاها كتاب له آخر عنوانه : « تصنيف حَيْكَل لصوص النهار وتفصيل حيل  
سُرّاق الليل » ، فقد سدّ به الناس كل خلل وحصنوا به كل عورة ؛ ويذكر  
أن أحد أصدقائه سأله أن يُفصّل « نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء » ، وما  
يجوز من ذلك في باب الهزل ، وما يجوز منه في باب الجلد « ليجعل الهزل  
مُسْتراحاً ، والمزاحة جَماماً » .

ويذكر الجاحظ أن الذي ساعده على توفير مادة الكتاب « مُلح الحزائم  
 واحتجاج الكندي » ، ورسالة سهل بن هارون ، وكلام ابن غزوان ، وخطبة الحارثي ،  
وكل ما حضره من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم ، واحتجاجهم للبخل ، وشذوذ  
البخلاء في تفكيرهم ، إلى غير ذلك مما لم يكن بدّاً من تقويمه وتوضيحه ، حتى  
يكون من الكلام فائدة للبصير ، ودرس للبيب .

(١) الملح جمع ملحّة : ما لذ واستملح من الأحاديث .

ج - مضمون الكتاب

أراد الجاحظ أن يفتح الكتاب بنظرة عامة على نفسية البخلاء جعلها مقدمة بين يدي موضوعه ، « فهو يعجب شديد العجب ممن قد فطن لبخله ، وعرف إفراط شحه ، وهو في ذلك يُجاهد نفسه ويُغالب طبعه ، واربما ظن أن قد فطن له وعرف ما عنده ، تفوه شيئاً لا يقبل التمويه ، ورقع خرقاً لا يقبل الرقع ، فلو أنه ، كما فطن لعييه وفطن لمن فطن لعييه ، فطن لضعفه عن علاج نفسه . . . . وعن استرجاع ما سلف من عاداته ، . . . لترك تكلف ما لا يستطيعه . . . » . والجاحظ يذكر ، فضلاً عن تمويه البخلاء ، فطنتهم لعيوب غيرهم ، ويقول : « فما باله ( البخيل ) يفطن لعيوب الناس إذا أطعموه ، ولا يفطن لعيوب نفسه إذا أطعمهم ، وإن كان عيبه مكشوفاً ، وعيب من أطعمه مستوراً » .

وبعد هذه المقدمة يُثبت الجاحظ رسالة سهل بن هارون في البخل وفيها ردود الرجل على بني عمه من آل راهيون الذين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكسب .

ثم ينتقل الجاحظ إلى موضوع كتابه فيبدأ بقصة أهل خراسان ولا سيما أهل مرو ، وإذا البخل في أهل مرو طبع ، وإذا ديوكهم نفسها تساب الحب من مناقير الدجاج . ويتبع قصة أهل خراسان بقصة أهل البصرة من المسجديين ، وقصص زبيدة بن حميد الصوفي ، وليلي الناعطية ، وأحمد بن خلف ، وخالد بن يزيد ، وأبي جعفر ، والحزامي ، والحارثي ، وغيرهم .

ثم يُثبت الجاحظ رسالتين إحداهما من أبي العاصم إلى الثقفى في ذم البخل ومدح الكرم ، والأخرى جواب ابن التوأم على رسالة الثقفى في إظهار مفسد البذل وما إلى ذلك .

ويختم كتابه بكلام على أطعمة العرب .

د - الكتاب ودراسة الأخلاق

أول ما يلاحظ في هذا الكتاب أن صاحبه قصر همه على ناحية واحدة

من نواحي الأخلاق هي البخل ، وأنه مع ذلك أنشأ كلاماً طويلاً مما يدل على سعة إدراك الرجل ، ودقة ملاحظته لأعمال الناس التي تُخبر عن نفسياتهم وأميالهم ، والتقاطه لأدق حركات البخلاء ، ولكن الأسلوب في كلامه لم يكن أسلوب من يقدم في أشخاصه رموزاً إلى كل من أحب المال وعلق المادّة ، ومثلاً شاملة عامة ؛ فالجاحظ يعرض علينا قصصاً وروايات متتابعة من غير ما ترتيب فني يكون وحدة تأليفية .

وليست غاية الجاحظ في كتابه الهجاء لمجرد الهجاء ، وإن حوى كلاماً على الكرم والبخل وحجج هذا وذاك ، إنما غايته إصلاح تلك الفئة من الناس التي اتخذت البخل مذهباً تؤيده عن عقيدة أو عن تمويه . وهو ، إن ذم البخل وأوضح مفسده ، لا يغفل عن تحسين الاقتصاد . وأشخاص الجاحظ في كتابه أحياء يتحركون ، ويتكلمون بلغة هي لغتهم ؛ ويكشفون لنا عن أنفسهم . وهم عادة أصحاب جدل ومنطق ، يلجأون إلى البراهين المختلفة والسفسطات<sup>(١)</sup> التي تضحكننا من حيث تقنعهم أو تظهر أنها تقنعهم .

وبخلاء الجاحظ هم من « طيّاب البخلاء » لا تشمئز النفس منهم ولا تُتمل قراءة أخبارهم ، فقد عرف الجاحظ أن يبث فيهم من خفة روحه ، وأن يجعل نكته على لسانهم ، ويرثيهم من التعدي الذم على مال غيرهم مهما اشتد حرصهم على ما لهم ؛ لا بل يوضح من اقتصادهم أحياناً ما يُحمد وما يعتمد عليه في تدبير المنزل<sup>(٢)</sup> .

١ - الفائدة التاريخية

يُطلعنا الكتاب على ناحية من نواحي المجتمع العباسي ولا سيما مجتمع البصرة وخراسان ؛ ويفصل لنا طرق العيش في تلك الفئة من الناس ، وأساليب كلامها ، ثم يمتد إلى كثير من عادات العرب وماكلهم وأمثالهم وأخبارهم ، وإلى بخل لروم ، وغش الفرس ، وغير ذلك مما يطول سرده .

(١) السفسطات جمع سفسطة : الاستدلال والقياس الباطل يقصد به تمويه الحقائق .

(٢) طالع المتخبات ص ٧٠ - ٨٠ .

## كتاب الحيوان

١- ما هو، وما غاية المؤلف من وضعه

يشتمل هذا الكتاب على وصف طبائع الحيوان ، وقد أودعه صاحبه كل ما شاء إيداعه من الحكمة والأدب والظرف ، ودون فيه كل ما تفرق في كتب العلم والأدب ، وما انتشر على أفواه الناس من الأشعار والأقوال ، والأحكام والأسماء ، عن الحيوان وعلاقتها ببنى الإنسان . وذكر الجاحظ في مواضع عدة من الكتاب ما في طبائع الحيوان من الحجب على حكمة الله العجيبة وقدرته الباهرة .

وطُبع الكتاب مراراً في عدة أجزاء تختلف عددًا باختلاف طبعاته . طبع بمصر في سبعة أجزاء سنة ١٩٠٧ ، ثم طبعة أخرى أنيقة حقق الكتاب فيها وشرحه عبد السلام محمد هارون سنة ١٣٥٧ هـ . (١٩٣٨ م) .

ب- مصادر المؤلف في وضع كتاب الحيوان

إن المراجع التي لجأ إليها الجاحظ في وضع كتابه الحيوان كثيرة حتى يصعب الإتيان على ذكرها كلها . فقد برهن المؤلف في هذا الكتاب على معارف واسعة ، واطلاع نادر على جميع الثقافات المعروفة لزمانه من عربية ويونانية وفارسية وهندية ، وعلى جميع الديانات وتعاليمها من مانوية وزرادشتية ودهرية ، ويهودية ونصرانية وإسلامية ، وعلى جميع الفرق والترعات . أما مصادر الجاحظ الأجنبية فهي كتب أرسطو أولاً (١) ، ولأرسطو كتاب في الحيوان يقع في تسع عشرة مقالة ، نقله ابن البطريق ، وخلصه غيره . ولم يقتصر الجاحظ على أرسطو بل نقل أيضاً عن أقليمون صاحب الفراسة في الكلام على الحمام ، وعن جالينوس في ما يصلح له لحم الضب ، وفي معارف البهائم والطيور . ونقل عن الفرس وتكلم على أساطيرهم ونيرانهم . ونقل كذلك عن اليهود والنصارى أموراً كثيرة تتعلق بدياناتهم .

(١) طالع المتخبات ص ٥٦ .



## ج - مضمون الكتاب

لم يقتصر الجاحظ في كتابه على طبائع الحيوانات ، بل شطّ عن موضوعه وغايته ، وأخرج كلامه مخرج الشمول العامي والأدبي ، فضمّنه معلومات واسعة في الحيوان وغير الحيوان ، ومزج الجدلّ بالهزل ، والعلم بالأدب ، والفكاهة بالمجون ، مزجاً غريباً (١) .

وقد جعل الجاحظ كتابه في سبعة أجزاء :

الجزء الأول : يتضمن مقدمة ردّ فيها الجاحظ على من انتقد كتبه التي ذكر منها ما يزيد على الأربعين كتاباً ، ثم انتقل إلى تفصيل فضل الكتاب وضرورة اقتنائه . وما إن انتهى من مقدمته حتى انتقل إلى باب الخصاء ومنافعه وجعله توطئة للكلام على الحيوان الذي ذكر منه الكلب والديك .

الجزء الثاني : يتضمن تنمة الكلام على الكلب .

الجزء الثالث : يتضمن كلاماً على الحمام وطبائعه ، وعلى الذباب ، والغربان وغيرهما . وفيه استطرادات إلى صدق الظنّ والفراسة والجنون .

الجزء الرابع : يتضمن كلاماً على الذرة ، والنمل ، والقرد ، والخنزير ، والحيات ، والظليم (٢) ، ومن استطرادات هذا الجزء الكلام على النيران بأنواعها : ما كان منها للعرب وما كان منها للعجم ، وما كان للديانات وما كان لغير الديانات .

الجزء الخامس : يُقسم هذا الجزء قسمين : يتضمن القسم الأول تنمة الكلام على النار ، وتفسير بعض الآيات ، ثم ما قيل من مديح في النصاري واليهود والمجوس والأنذال وصغار الناس . ويتضمن القسم الثاني كلاماً على بعض الحيوان كالفأر والجُرذان والسنائير وغيرها ، وعلى الفرق بين الإنسان والبهيمة ، والإنسان والسبع .

الجزء السادس : يتضمن تفسيراً لقصيدة البهرانيّ في الحيوان ، ولقصيدتي بشر بن المعتمر ، وكلاماً على الثأر عند العرب وعلى الجبان ، وإلى جنب ذلك يتكلم على بعض الحيوان كالهدهد والتمساح والأرانب وغيرها .

(١) طالع المتعقبات ص ٨١ - ٩٥ .

(٢) الظليم : الذكر من النعام .

الجزء السابع : يتضمن هذا الجزء برهاناً على ما رمى إليه الجاحظ من وضع الكتاب : أعنى إظهار حكمة الله وقدرته الباهرة ، ففيه تبين لما امتاز به الحيوان من الحكمة العجيبة ، وما ألهمه الله به من المعرفة ووهبه من الجبن والجرأة ، وأشعره من الفطنة بما يحاذر به عدوه . ولا يخلو هذا الجزء أيضاً من الكلام على بعض الحيوان كالفيل والزرافة وغيرها .

#### د - قيمته الأدبية

لن نبحت هنا في فن الجاحظ الكتابي لأننا سنفرد له محلاً خاصاً وإنما نقصر كلامنا على أسلوب الجاحظ التأليفي في كتاب الحيوان فهو يقول فيه : « متى خرج ( القارئ ) من آي القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى الشعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله يكون أثقل ، والملال إليه أسرع ، حتى يفضي إلى مَرَح وفكاهة وإلى سُخْف وخرافة ، ولست أراه سُخْفاً . »

وهو يقول أيضاً : « إني أوشعُ هذا الكتاب بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ، ليخرج قارئه من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيتُ الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة ، والأوتار القصيحة إذا طال ذلك عليها ، وإذا كانت الأوائِل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة ، كانَ هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غایتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً . »

فالجاحظ من ثم أستاذ يريد أن يلقي على العالم العربي دروسه ، وهو يريد أن يستفيد سامعوه خيراً ، فيجعل همه كله في إساعة ما يقول ، وإرساله على الطرق التي تبعد الملل ، حتى تنفتح له القلوب ، وتفهمه العقول ، وهو من ثم يرى التنقل من موضوع إلى موضوع ، والاستطراد ، ومزج الجدل بالهزل ، خير طريق إلى الأفهام ، ولذلك نراه يخلط دائماً جداً بهزل ، ويسبغ اللقمة الجافة بكثير من الحلوى ، وإن كثر فيها الإحماض والمجون المكشوف ، ذلك أسلوب الجاحظ في كتاب الحيوان ، وهو يأسف على سلوكه هذا

السبيل ، ولكنه لا يرى مناصباً منه ، فيقول : « ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر لما احتجت إلى مداراتهم واستمالتهم ، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم — مع فوائد هذا الكتاب — إلى هذه الرياضة الطويلة وإلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذي أفيدُهُ إياهم أستفيدُهُ منهم ، وحتى كأن رغبتي في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم » . والجاحظ يعترف بأنه عانى في هذه الطريقة أكثر مما قد عانى لو كتب كتاباً في موضوع واحد من غير استطراد .

ليس للكتاب إذن من وحدة تأليفية ، فالمؤلف يراعى فيه هوى قارئه لا قواعد المنطق والعقل ؛ فكان فيه عالماً وأديباً يرضى العلم والبلاغة ، كما كان معتزلياً يرغب في الجدل والمناظرة ، حتى إذا لم يجد من يناظره خلق شخصين يتناظران في مسألة يريد الكلام فيها ؛ فإذا تكلم على الكاب والدياك مثلاً خلق لكل منهما صاحباً يذكر فضائله وفوائده ، ويستشهد على ما يقول بالأخبار القديمة والأقاصيص ، وبما ورد في التوراة والإنجيل والقرآن والحديث ..

#### هـ - قيمته التاريخية

من استقراء موضوعات الكتاب تتجلى لنا قيمته التاريخية ، فهو خزانة معلومات كثيرة الأصول والفروع ، تتناول تاريخ العرب وغير العرب ، وثقافتهم ، وعاداتهم ، ودياناتهم وأحوالهم الاجتماعية مما يؤلف مجموعة واسعة من الحقائق التي أعمل فيها الجاحظ عقله وروحه النقدية ، وأبرزها بقدر ما استطاع من تدقيق وتحري .

#### و - قيمته العلمية

اختلف النقاد في قيمة الجاحظ العلمية ، فمنهم من عدّ الرجل عالماً من أكبر العلماء ، ومنهم من حطّ من شأنه العلمي . والحقيقة أن الجاحظ عالم وإن غلبت عليه الصبغة الأدبية ، ولكن علمه لا يخلو من أضاليل لضعف الوسائل العلمية لأيامه . فقد تناول الموضوعات العلمية واتباع أصول العلم في التحقيق ، يحفزه على ذلك روحه المعتزلية التي تجعل العقل في أساس البحث كما يحفزه مثل أستاذه النظام أبي الروح العلمي في ذلك العهد وحامل لواء العقل .

وموضوعات الجاحظ العلمية هي ما أدركناه في دراسة أبواب الكتاب . وقد كان الكتاب إلى ما قبل ظهور الجاحظ يصرفون همتهم إلى الاختصاص بالضرب الواحد أو الضربين من أنواع العلوم ، أما الجاحظ فلم يتخصص بل شاء أن يكون ( دائرة معارف ) تحيط بأكثر ما عُرف من علوم الإنسانية وآدابها حتى عهده ، وأن يزيد عليها . وفي كتاب الحيوان أكبر شاهد على ذلك .

وأصول تحقيق الجاحظ ، هي الأصول العلمية<sup>(١)</sup> . وقد قال في مقدمة كتابه :

« هذا كتاب تستوى فيه رغبة الأُمم ، وتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً ، وإسلامياً جماعياً ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة » .

فهو إذن يعتمد الحواس والعقل في درك الأمور . فالعنصر الأول من عناصر تحقيقه هو المعاينة يضم إليها التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف . وكل قول في نظره « يكذبه العيان » فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وأدلُّ على معاندة شديدة ، أو غفلة مفرطة » .

أما التجربة فكان الجاحظ يعتمد إلى طرق مختلفة منها : فتارة يقطع أعضاء الحيوان ، أو يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وتارة يذبح الحيوان ويفتش جوفه وقانصته<sup>(٢)</sup> وطوراً يجمع أضداد الحيوان في إناء ليعرف تقاتلها ، وطوراً آخر يلجأ إلى إحدى مواد الكيمياء ليعلم تأثيرها في الحيوان .

وأما معرفة السماع فكان الجاحظ يلجأ إليها ، ويتردد على أهل المعرفة من زمانه ، ويعتمد إلى كتب أرسطو وغيره . ولكنه كان يعمل في ذلك تمييزه ، فيناقش ويحاول تحقيق ما يسمع فتارة يسمع الخبر فيشته كما هو ، وتارة ينفى الشبهة عن يأتيه بالخبر ، وحيناً يكذبه ، وحيناً آخر يعجب لقوله إذا لم يجد سبيلاً إلى التحقيق .

والجاحظ يجمع إلى معونة الحواس معونة العقل ، ويقول : « فلا

( ١ ) طالع المتخبات ص ٥٣ - ٥٨ .

( ٢ ) القانصة الطير كالحوصلة للانسان .



تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يُريك العقل ، وللأمر حُكمان :  
 حُكم ظاهرٌ للحواسِّ وحُكمٌ باطنٌ للعقول ، والعقل هو الحجة . وبهذا  
 وذاك كان الجاحظ تلميذاً للنظام الذى كان يعتبر الشك أساساً للبحث ، والذى  
 عمد إلى التجربة واستخدم المنطق فى البحث عن الحقائق . فكان الجاحظ  
 يجعل الشك سبيلاً إلى اليقين ، ويقول : « اعرف مواضع الشك والحالات  
 الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له » . ولم يكن الشك  
 عنده هياماً بالشك بل كان طريقاً إلى المعرفة .

والجاحظ يضيف إلى الشك النقد العلمى ، وهو مغرم بالتنبيه على الخرافات  
 والنيل من أصحابها . وقد نال بنقده طائفة من العلماء ومنهم أرسطو . فأخذ على  
 هذا الأخير أنه لم يعتمد فى تحقيقه على العيان والسمع والامتحان ، وأنه إذا  
 تكلم ، فى بعض الأحيان ، على حيوان لا يستوفى عجائبه . ولم يكن نقد الجاحظ  
 رغبة فى النقد بل كان طريقاً إلى درك الحقيقة .

\* \* \*

تلك قيمة الجاحظ العلمية كما تتجلى لنا من كتاب الحيوان . إلا أن علم  
 الجاحظ يتوره كثير من الأوهام والأضاليل التى نجد لها عند سائر العلماء الأقدمين .  
 وقد فات الجاحظ روح الترتيب فى ما خبره وعينه ودوته ، كما فاتته قدرة العالم  
 على التعميم واستنباط القوانين العامة ، والتمكن من إنشاء المقاييس العلمية .

## ٢ - فن الجاحظ

ليس الجاحظ بالرجل الفسيح الخيال ، ولا هو برجل العاطفة التى تستبد  
 بجميع كيانه ، بل إنما هو رجل الاعتزال ، أى رجل العقل والحدل ، يتطلب  
 الحقيقة بكل قواه ، ويبحث طويلاً فى سبيل الحصول عليها ، ثم يسعى جهده  
 للتعبير عنها تعبيراً بيناً يظهر جميع دقائقها قريبة إلى الأفهام .

ولأجل ذلك نرى الجاحظ يعدل عن أساليب المجاز ما استطاع ، وإن  
 عمد إلى شئ من التشبيه والاستعارة فما ذلك للزخرف وتطلب الصنعة ، ولكنه  
 لوضوح الإبانة بطريقة واقعية محسوسة . ومن ثم فاستعاراته وتشبيهاته بعيدة كل

البعد عن التعقيد والإغراب ، قريبة كل القرب من الأفهام . قال يصف حية رمالاً بلعنبر : « . . . غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمحٌ مركوزٌ أو عود ثابتٌ » . فالتشبيه حسّي ، سهل المأخذ لا يحتاج إلى تفكير ولا إلى تخيل عميق .

ثم إن الجاحظ — شأن الأستاذ الحاذق — يراعى أبداً مقتضى الحال . فهو خبير بنفسية الإنسان ، ومفتنٌ ماهر ، لا ينسى من يضع لهم كتبه ، ولا يغفل عن الأحوال المكانية والزمانية . قراه لذلك يتحدث إلى قارئه بأسلوب طبيعي بعيد عن الصنعة والتمويه ، فترى عبارته تمتد تارة وتنقبض أخرى . تُرسل تارة إرسالا من غير تمويج ولا تقطيع ، وتُقطع تارة أخرى تقطيعاً موسيقياً ، وموسيقاها هي موسيقى التقطيع الطبيعي الماهر ؛ وترى أسلوبه يتزع نزعة الحياة الحرة الطليقة التي تروق أبناء العصر ، ويميل عن جفاف الأسلوب العلمي المجرد ، ويسترسل في الاستطراد والاستشهاد والجدل ، ويعمد إلى الهزل في مواطن الجد ، فإذا نفس الكاتب الخفيفة الظل ، المطبوعة على الدعابة والمزح ، تراءى في كل حال وكل مقال ؛ وإذا جفاف العلم يلينه السرور ، وإذا السرور تبعثه نادرة غريبة ، أو فكرة لطيفة ، أو ترحم هازئ ، أو ما إلى ذلك من ضروب الهزل . ولا شك أن ذلك الاستطراد وما يتبعه من ضروب مراعاة الأحوال يلحق ضرراً بالوحدة التأليفية ، والمنطق العلمي ، ولكنه يروق أبناء العصر ، ويروج المصنفات ، ويُفهم الحقائق ويفسرهما ، والجاحظ لا يطلب غير ذلك .

ثم إن لغة الجاحظ ، هي اللغة التي يقتضيها العقل ويطلبها التعبير عن الحقيقة . فالجاحظ يرى إلى الإفهام ، وإلى استعمال الألفاظ التي تجلو المعاني عن طريق الحقيقة فهو يقول : « ليس الكتابُ إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع لما فيه ، إلى الروية ؛ ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفعُ به عن ألفاظ السفلة والخشوة<sup>(١)</sup> ، ويحطه عن غريب الأعراب ووحشي الكلام » . فذهبه من ثم واضح ؛ وقد جرى عليه ، فكانت ألفاظه دقيقة ، واضحة الأداء ، واقعية حسية ، بعيدة عن الخشونة والغرابة ، يُحسن تصيدها ، فيقلر

(١) سفلة القوم : أسافلهم . والخشوة منهم : أذالهم .

اللفظة بجرسها ورتها وما ينتظر من تأثير توقيعها وتلحينها إذا قرنت إلى أختها ،  
وَيُمَيِّز الثَّقِيلَةَ والخَفِيفَةَ ، والمَأْنُوسَةَ والوَحْشِيَّةَ ، فيختار ما يؤدي معناه حق الأداء  
ويتزله في منزله . ولا تعصيه كلمة مهما دق موضوعه ، ولا يطوى لسانه على  
معنى في قلبه لا يتسنى له إبرازه بالنطق أو تمثيله باللفظ . وكان الجاحظ نحاً  
وبنّاء في آن واحد ، ينظر إلى شيئين في ألفاظه : الدقة والموسيقى . ومن ثم  
شاعت العذوبة في كلامه . إلا أن تلك السهولة وتلك الدقة لا تخلوان أحياناً  
من غموض ينجم عن التباس الضمائر فلا يعرف إلى من ترجع لتعاقبها ؛ ويعمد  
الجاحظ أحياناً إلى ألفاظ أعجمية وعامية مراعاة لمقتضى الحال .  
ومهما يكن من أمر فالجاحظ مصور بارع ، يصور بجملة وألفاظه ،  
فيذكر الدقائق والتفاصيل بأوضاعها لا بسلسلة تصويرات أو تشبيهات أو ما إلى  
ذلك ، وهو في كل ذلك رجل الواقع لا يجيد عنه في حال من الأحوال .

### ٣ - منزلة الجاحظ

#### أ - مدرسة الجاحظ الكتابية

يعدّ الجاحظ رأس المدرسة النثرية الثانية في الأدب العربي ، وقد كان  
عبد الحميد وابن المقفع رأس المدرسة الأولى . وإن في أسلوب المدرسة الثانية  
نزعة إلى الطراوة الملائمة لتقدم الحضارة ، وميلاً إلى الإسهاب والإطالة الملائمة  
للرجل المتحضر ، ورجوعاً إلى العرب والاستقاء من ينابيع أدبهم ، وتكييف  
أساليبهم ، لتماشى المدنية والثقافة ؛ والشغف بالمنطق كلما دعت إليه الحال .

#### ب - آثار الجاحظ صورة لبيته

شبّ الجاحظ في زمن الرشيد ، ونبع في عهد المأمون ، وقد امتاز عصره  
بحرية الفكر ، فصوّر الجاحظ تلك الحرية بواقعيتها ، وظهرت في علمه ،  
وفي دينه ، وفي أدبه .

أما في علمه فقد ظهرت في تحقيقه العلمي ، وفي نقله وشكه وحججه ؛

وأما في دينه فظهرت في اعتزاله وتفسيره وتأويله ، وتأسيس كل شيء على العقل ؛ وأما في أدبه فظهرت في انطلاق أسلوبه ولغته .

وكما مثل الجاحظ حرية الفكر في عصره ، مثل أيضاً نتيجة تلك الحرية وهي مزدوجة : نتيجة حسنة هي ازدهار العلوم العقلية ، ونتيجة سيئة هي الانحلال في العقيدة والأخلاق . فمثل الجاحظ في آثاره تشعب الحركة الفكرية ، وانطلاق العلوم واتساع الآفاق ، والبحث العلمي المؤسس على العقل ؛ وقد أخذ من كل علم بطرف ، حتى خاض في أبواب شتى من الاجتماع والأخلاق ، والتربية والتعليم ، والطبيعة ، والتاريخ الطبيعي ، وفلسفة اللغة ؛ وما إلى ذلك . ومثل الجاحظ من جهة أخرى الأخلاق والعقائد وأظهر انحلالها في فئات من أهل عصره ، فصور حيل التجار ، وخزعبلات المسؤولين ؛ وسخافات الشبان المتخثنين ، وزندقة المترندين ، وما أشبه ذلك من ضروب الفساد .

#### ج - رواج الجاحظ عند أبناء عصره

كان الجاحظ أستاذاً في عصره يلقي دروسه على العالم العربي بأسره . وقد لقي رواجاً عظيماً لسعة علمه ، وكثرة مؤلفاته ، واعتزاله وجراته في النهوض على التقاليد ، تلك الجرأة التي وفرت له الأعداء والأصدقاء ، ونظرة النقد المتقعد على المعقول والتجربة ، واتساع آفاق موضوعاته إذ كان كل إنسان يجد فيها ما يروقه ، والتنوع الذي كان يبعد السأم ، وتصوير أخلاق العصر وفئات الناس - وهذا النوع من الأدب كثير الرواج - وأسلوبه السخري ، ومزجه الجلد بالهزل ، وتبسيط المسائل العلمية والفلسفية في أسلوب واضح يصطبغ بالصبغة العربية . وهكذا وجد الناس صلة بينهم وبين ما مثل لهم الجاحظ ، بخلاف ما وجدوا عند ابن المقفع الذي قدّم لهم أدباً وضع لزمان غير زمانهم وشعب غير شعبهم . وقد أعجب الناس بابن المقفع قبلاً لأنهم رأوا في كتبه شيئاً جديداً لم يكن لهم عهد بمثله ، ولأنها كتبت بلغة سمحة تملأ الصدور جلالاً . أما في هذا العصر فقد آثروا كتب الجاحظ لأنها أكثر استنباطاً ، وأبرز شخصية ، وأوسع مادة ، وأبرع فناً ، وأقرب إلى حياة الشعب .



## د- أثر الجاحظ في الأدب العربي

إن شخصية الجاحظ قد استهوت الأدباء في عصره وبعد عصره ، فكان للرجل أثر كبير في الأدب العربي . وكان هذا الأثر حسناً من جهة ، سيئاً من جهة أخرى .

كثّر طلاب الجاحظ والمتلمذون له . فمنهم من لخصوا بنص آثاره كما فعل عبد اللطيف البغدادي ( ١١٦١ - ١٢٣١ م / ٥٥٧ - ٦٢٩ هـ ) . الذي لخص كتاب الحيوان في مؤلف سماه « اختصار كتاب الحيوان » ، وكما فعل ابن سناء الملك الشاعر المصري ( ١١٥٥ - ١٢٥٩ م / ٥٥٠ - ٦٥٨ هـ ) الذي لخص الكتاب نفسه وسماه « روح الحيوان » .

ومنهم من حاكى الجاحظ في تأليفه ، فحفلت كتبهم بمختلف الموضوعات وحفلت بالاختلاط وسوء الترتيب . ونذكر من هؤلاء ابن قتيبة ( ٨٢٨ - ٨٨٩ م و ٢١٣ - ٢٧٦ هـ ) صاحب « عيون الأخبار » ، وأبا العباس المبرّد ( ٨٢٦ - ٨٩٨ م / ٢١٠ - ٢٨٥ هـ ) صاحب « الكامل » ، وابن عبد ربه ( ٨٦٠ - ٩٤٠ م و ٢٤٦ - ٣٢٨ هـ ) صاحب « العقد الفريد » ، وأبا بكر الصولي ( ٩٤٦ م / ٣٣٥ هـ ) صاحب كتاب « الأوراق في أخبار الخلفاء والشعراء » ، والآملي ( ٩٨١ م / ٣٧١ هـ ) ، وابن الفقيه الجعفي ( القرن العاشر ) والثعالبي ( ٩٦١ - ١٠٣٨ م / ٣٥٠ - ٤٢٩ هـ ) صاحب « يتيمة الدهر » ، والبيهقي ( القرن العاشر ) صاحب « كتاب المحاسن والمساوي » والقزويني ( ١٢٠٨ - ١٢٨٣ م / ٦٠٥ - ٦٨٢ هـ ) والدّميري ( ١٣٤٩ - ١٤٠٥ م / ٧٥٠ - ٨٠٨ هـ ) صاحب « حياة الحيوان الكبرى » .

وقد تكون رسالة الترييع والتدوير من عوامل ظهور فن المقامات في الأدب العربي .

وكيفما كان الأمر ففضل الجاحظ على الأدب العربي فضل جيم . فقد قرب الفلسفة والعلوم إلى كل ذهن ، وصاغها صياغة أدبية مزج فيها كلام أرسطو بأشعار الجاهليين ، وأقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء ، وجعل اللغة العربية لغة الحياة التي تنطق بكل علم وتعبّر عن كل فن .

## الفصل الرابع

### مِنْتَخِبَاتٌ مِنْ آثَارِ الْجَاحِظِ

#### ١ - آراء الجاحظ في الكتاب والتأليف والترجمة

##### المؤلف المحسود

إِنِّي رُبَّمَا أَلَفْتُ الْكِتَابَ الْمُحْكَمَ الْمُتَقَنَ فِي الدِّينِ وَالْفَقْهِ وَالرَّسَائِلِ وَالسِّيَرَةِ وَالْخُطْبِ وَالْخَرَجِ وَالْأَحْكَامِ ، وَسَائِرِ فُنُونِ الْحِكْمَةِ ، وَأَنْسِبُهُ إِلَى نَفْسِي ، فَيَتَوَاطَأُ عَلَى الطَّعْنِ فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، بِالْحَسَدِ الْمُرْكَبِ فِيهِمْ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ بَرَاعَتَهُ وَنَصَاحَتَهُ<sup>(١)</sup> . وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ إِذَا كَانَ الْكِتَابُ مُؤَلَّفًا لِمَلِكٍ مَعَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَالْحِطِّ وَالرَّفْعِ ، وَالتَّرْهيبِ وَالتَّرْغِيبِ ، فَإِنَّهُمْ يَهْتَاجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ اهْتِيَاجَ الْإِبْلِ الْمَغْتَلَمَةِ . فَإِنْ أَمَكَّنَتْهُمْ الْحِيلَةُ فِي إِسْقَاطِ ذَلِكَ الْكِتَابِ عِنْدَ السَّيِّدِ الَّذِي أُلِّفَ لَهُ ، فَهُوَ الَّذِي قَصَدُوهُ وَأَرَادُوهُ . وَإِنْ كَانَ السَّيِّدُ الْمُؤَلِّفُ فِيهِ الْكِتَابَ نَحْرِيًّا نَقَابًا<sup>(٢)</sup> ، وَنَقْرِيْسًا<sup>(٣)</sup> بَلِيغًا ، وَحَادِقًا فَطِنًا ، وَأَعْجَزَتْهُمْ الْحِيلَةُ ، سَرَقُوا مَعَانِيَ ذَلِكَ الْكِتَابِ ، وَأَلْفَوْا مِنْ أَعْرَاضِهِ وَحَوَاشِيهِ كِتَابًا وَأَهْدَوْهُ إِلَى مَلِكٍ آخَرَ ، وَمَتَّوْا<sup>(٤)</sup> إِلَيْهِ بِهِ ، وَهُمْ قَدْ ذَمُّوهُ وَثَلَبُوهُ لَمَّا

---

(١) النصيحة : الخلوص .

(٢) النقاب : الرجل العلامة ، أو النافذ في الأمور .

(٣) النقريس : الطيب الماهر المدقق . (٤) مت إليه بحمرة : توصل بقراءة أو دالة .

رأوه منسوباً إلى ، وموسوماً بي . ورُبَّما أُلِّفَتْ الكتاب الذى هو دونه  
 فى معانيه وألفاظه ، فأترجه باسم غيرى ، وأحيله على من تقدمنى عصره  
 مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب الحكمة ويحيى بن خالد والعنابى ،  
 ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب ، فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم ،  
 الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ  
 هذا الكتاب وقراءته على ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه إماماً  
 يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدّبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه  
 فى كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه غنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس ،  
 فثبت لهم به رياسة يَأْتَمُّ<sup>(١)</sup> بهم قوم فيه ، لأنّه لم يُترجم باسمى ، ولم  
 يُنسب إلى تأليفى<sup>(٢)</sup> .

## الكتاب

كان الجاحظ يحب الكتاب حبا جما ، وقد قضى حياته يطالع الكتب ويؤلفها حتى أصبحت  
 جزءاً من ذاته وأطيب لذاته . وما هو ذا يخاطب من انتقد كتبه ويفصل منافع الكتب عمواً ويقول :

ثم لم أركَ رضيت بالطعن على كل كتابٍ لى بعينه ، حتى تجاوزتَ ذلك إلى  
 أن عِبتَ وضع الكتب كيفما دارت بها الحال ، وكيف تُصرف بها الوجوه .  
 وقد كنتُ أعجب من عيبك البعضَ بلا علم ، حتى عِبتَ الكلَّ بلا علم .  
 ثم تجاوزتَ ذلك إلى التشنيع . ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب<sup>(٣)</sup> الحرب ؛

(١) ائتم به : اقتضى . وائتمه : اتخذه إماماً .

(٢) من رسالة « فصل ما بين العداوة والحسد » .

(٣) نصب له الحرب : أقامها عليه .

فعبت الكتاب ، ونعم الدخر والعقدة<sup>(١)</sup> هو ! ونعم الجليس والعدة ، ونعم  
النشرة والنزهة ، ونعم المشتغل والحرقة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة ،  
ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل ، ونعم الوزير  
والنزيل !

والكتاب وعاء مليء علماً ، وظرف حشوي ظرفاً<sup>(٢)</sup> ، وإناء شحن  
مزاجاً وجداً ؛ إن شئت كان أيمن من سحبان وائل<sup>(٣)</sup> ؛ وإن شئت  
كان أعيان من باقل<sup>(٤)</sup> ؛ وإن شئت ضحكت من نوادره ؛ وإن شئت  
عجبت من غرائب فرائده . وإن شئت ألهمت طرائقه ، وإن شئت  
أشجبت مواعظه . ومن لك بواعظ مله ، وبزاجر مغر ، وبناسك  
فاتك ، وبناطق أخرس ، وبيارد حار ! وفي البارد الحار يقول الحسن  
ابن هاني :

قل لزهر إذا أنتحي رشداً أقل أو أكثر فانت مذار  
سخت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار  
لا يعجب السامعون من صفى ، كذلك الثلج بارد حار  
ومن لك بطيب أعرابي ! ومن لك برومي هندي ، وبفارسي يوناني !  
وبقديم مولد<sup>(٥)</sup> ، وبميت تمتع ! ومن لك بشيء يجمع لك الأول

( ١ ) العقدة : ما فيه بلاغ الرجل وكفايته من الرزق .

( ٢ ) الظرف : الوعاء . والظرف : الكياسة والذكاء البارع .

( ٣ ) سحبان : رجل من بني باهلة يضرب به المثل في الخطابة .

( ٤ ) باقل : رجل يضرب به المثل في العي .

( ٥ ) المولد : خلاف القديم .



والآخر ، والناقص والوافر ، والخبى والظاهر ، والشاهد والغائب ،  
والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده !  
وبعد ، فتى رأيت بستاناً يحمل فى رُدن<sup>(١)</sup> ، وروضة تُقلُّ فى  
حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ، ويُترجم عن الأحياء ! ومن لك  
بمؤنس لا ينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ! آمن من  
الأرض ؛ وأكتم للسر من صاحب السر ! وأحفظ للوديعة من  
أرباب الوديعة ! ..

وقد قال ذو الرُّمة لعيسى بن عمر<sup>(٢)</sup> : « اكتب شعرى ؛ فالكتاب  
أحبّ إلىّ من الحفظ ! » لأن الأعرابى ينسى الكلمة وقد سهر الشاعر فى  
طلبها ليلته ، فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ، ثم يُنشدّها الناس ،  
والكتاب لا ينسى ، ولا يبدل كلاماً بكلام .

وعبت الكتاب ، ولا أعلم جاراً أبرّ ، ولا خليطاً أنصف ، ولا  
رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، ولا أقلّ  
جناية ، ولا أقلّ إملالاً وإبراماً ، ولا أخفّل أخلاقاً ، ولا أقلّ خلافاً  
وإجراماً ، ولا أقلّ غيبة ، ولا أبعد من عَضِيبة<sup>(٣)</sup> ، ولا أكثر  
أعجوبة وتصرفاً ، ولا أقلّ تصلفاً وتكلفاً ، ولا أبعد من مرآء ، ولا  
أترك لشغب ، ولا أزهد فى جدال ، ولا أكفّ عن قتال من كتاب !

(١) الردن : مقدم كم القميص .

(٢) عيسى بن عمر الثقفى مولى خالد بن الوليد . إمام فى النحو واللغة وقد روى عن الحسن

البصرى والعجاج بن روبة .

(٣) المضية : البهتان والكلام القبيح .

ولا أعلم قريناً أحسن موافاةً ، ولا أعجل مُكافاةً ، ولا أخضر معونةً ،  
 ولا أخف مؤونةً ؛ ولا شجرةً أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا  
 أطيب ثمرةً ، ولا أقرب مُجتنىً ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجد في  
 كل إبان من كتاب ! ولا أعلم نتائجاً في حادثة سنة ، وقرب ميلاده ،  
 ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التداير العجيبة ، والعلوم  
 الغريبة ؛ ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ؛ ومن  
 الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ؛ ومن الإخبار  
 عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ،  
 ما يجمع لك الكتاب<sup>(١)</sup> !

## البيان

قال بعض جهابذة الألفاظ ونُقّاد المعاني : للمعاني القائمة في صدور  
 العباد ، المتصورة في أذهانهم ، والمتحلّجة<sup>(٢)</sup> في نفوسهم ، والمتصلة  
 بنخاطهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ،  
 ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة . لا يعرف الإنسان ضمير  
 صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه<sup>(٣)</sup> ، ولا معنى شريكه والمعاون له  
 على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ، وإنما تحيا

(١) من كتاب « الحيوان » المقدمة . الجزء الأول ص ٢٨-٤٢

(٢) المتحلجة : المضطربة .

(٣) الخليط : المخالط ، أى المشارك والصاحب .

تلك المعاني في ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إيّاها . وهذه الخِصال هي التي تقرّبها من الفهم ، وتجليها<sup>(١)</sup> للعقل ، وتجعل الخفي منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً ؛ وهي التي تلخص الملتبس<sup>(٢)</sup> وتحلّ المنعقد ، وتجعل للهمل مقيداً ، والمقيد مُطلقاً ، والمجهول معروفاً ، والوحشي مألوفاً ، والفعل<sup>(٣)</sup> موسوماً ، والموسوم معلوماً . وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقّة المدخل ، يكون إظهار المعنى . وكلّما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنبج<sup>(٤)</sup> . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحثّ عليه . وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف الأعجام . والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصولة كائناً ما كان بذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع . . . .

وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر

(١) تجليها : تظهرها .

(٢) الملتبس : المختلط .

(٣) الفعل : ما لا علامة فيه .

(٤) نجع الطعام أو النواء أو الكلام : نفع .

لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه<sup>(١)</sup> من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، نفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأيد ، ما لا يتمتع من تعظيمها به صدور الجبارة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهالة<sup>(٢)</sup> .

## الترجمة

أقبل أبناء ذلك العصر على النقل والترجمة فنقلوا علوم اليونان وحكمة الهند وتوارىخ الفرس ، وكان أكثر النقلة من السريان الذين لا يتقنون العربية إتقاناً جيداً ، فكان في نقلهم سيئات كثيرة . وهذا الجاحظ يحدثنا عن حركة النقل ويبدى لنا آراءه في الترجمة .

قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له : إن الترجمان لا يؤدى أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيا حقوقها ويؤدى الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجري<sup>(٣)</sup> وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها على حقها وصدقها إلا أن

(١) غشى الشيء وعلى الشيء : غطاه .

(٢) من كتاب « البيان والتبيين » الجزء الأول - مصر ١٣١١ هـ ص ٢٣ .

(٣) الجري : الوكيل .



يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ،  
 مثل مؤلف الكتاب وواضعه ؟ فمتى كان ، رحمه الله تعالى ، ابن البطريق ،  
 وابن ناعمة ، وأبو قرّة ( ابن قرّة ) ، وابن فيهر ، وابن وهبيل ،  
 وابن المقفع ، مثل أرسطاطاليس ؟ ومتى كان خالد مثل أفلاطون ؟ ولا بدّ  
 للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس  
 المعرفة . وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتى  
 يكون فيهما سواء وغاية . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين علمنا  
 أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى  
 وتأخذ منها وتعترض عليها ؛ وكيف يكون تمكّن اللسان منهما مجتمعين  
 فيه كتشكّنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنما له قوّة واحدة ، فإن تكلم بلغة  
 واحدة استفرغت تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثر من  
 لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات . وكلّما كان الباب  
 من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقلّ ، كان أشدّ على المترجم ، وأجدر  
 أن يُخطيء فيه ، ولن تجد البتّة مترجماً يفي بواحدٍ من هؤلاء العلماء .  
 هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون ، فكيف لو كانت  
 هذه الكتب كتب دين ؟ . . . (١)

## ٢ - الجاحظ رجل الاعتزال والتحرى العلمى

### العقل والحجة

العَجَب مِنْ تَرَكِ الْفُقَهَاء تَمْيِيزَ الْآثَارِ ، وَتَرَكَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْقَوْلَ فِي تَصْحِيحِ الْأَخْبَارِ ، وَبِالْأَخْبَارِ يَعْرِفُ النَّاسُ النَّبِيَّ مِنَ الْمُتَنَبِّ<sup>(١)</sup> ، وَالصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ . وَبِهَا يَعْرِفُونَ الشَّرِيعَةَ مِنَ السُّنَّةِ ، وَالْفَرِيضَةَ مِنَ النَّافِلَةِ<sup>(٢)</sup> ، وَالْحَظَرَ مِنَ الْإِبَاحَةِ ، وَالْاجْتِمَاعَ مِنَ الْفِرْقَةِ ، وَالشَّدُوذَ مِنَ الْاسْتِفَاضَةِ ، وَالرَّدَّ مِنَ الْمَعَارِضَةِ ، وَالنَّارَ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَعَامَّةَ الْمَفْسَدَةِ وَالْمَصْلَحَةِ . . .

إِنَّ كُلَّ مَنْطِقٍ<sup>(٣)</sup> مَحْجُوجٌ<sup>(٤)</sup> ، وَالْحُجَّةُ حُجَّتَانِ : عَيَانُ ظَاهِرٍ ، وَخَبَرُ قَاهِرٍ . فَإِذَا تَكَلَّمْنَا فِي الْعَيَانِ وَمَا يَفْرَعُ مِنْهُ ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّعَارُفِ فِي أَصْلِهِ ، وَالتَّعَارُفِ فِي فُرْعِهِ . فَالْعَقْلُ هُوَ الْمُسْتَدِلُّ ، وَالْعَيَانُ وَالْخَبَرُ هُمَا عِلَّةُ الْاسْتِدْلَالِ وَأَصْلُهُ ، وَمَحَالُ كَوْنِ الْفَرْعِ مَعَ عَدَمِ الْأَصْلِ ، وَيَكُونُ الْاسْتِدْلَالُ مَعَ عَدَمِ الدَّلِيلِ ، وَالْعَقْلُ مَظْمُنٌ بِالْدَّلِيلِ ، وَالدَّلِيلُ مَظْمُنٌ

(١) المتنبى : المدعى النبوة .

(٢) النافلة والنفل : ما تفعله بما لم يفرض ولم يجب عليك فعله . ولقد استعمل

ابن الفارض الفروض والنفل استعمالاً لطيفاً في الشعر ، حيث يقول :

أَنْتُمْ فَرُوضِي وَنَفْلِي      أَنْتُمْ حَدِيثِي وَشَفْلِي  
يَا قَبْلِي فِي صَلَاتِي      إِذَا وَقَفْتُ أَصْلِي

(٣) المنطيق : البليغ الفصيح اللسان .

(٤) محجوج : مغلوب بالحجة .

بالعقل ، ولا بُدَّ لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لإبطال أحدهما [ وجه مع إيجاب الآخر ، والعقل نوع واحد ، والدليل نوعان : أحدهما ] شاهد عيان يدلّ على غائب ، والآخر مجيء خبر يدلّ على صدق<sup>(١)</sup> .

### الشكّ طريق إلى اليقين

زعم لي ابن أبي العجوز أن الدّساس<sup>(٢)</sup> تلد ، وكذلك خبرني به محمد بن أيّوب بن جعفر عن أبيه ، وخبرني به الفضل بن إسحق ابن سليمان ، فإن كان خبرهما عن إسحق فقد كان إسحق في معادن العلم . وقد زعموا بهذا الإسناد أن الأروية<sup>(٣)</sup> تضع مع كل ولد وضعته أفعى في مشيمة<sup>(٤)</sup> واحدة ، وقال الآخرون : الأروية لا تعرف بهذا المعنى ، ولكنه ليس في الأرض نمرّة إلّا وهي تضع ولدها وفي عنقه أفعى في مكان الطوق ، وذكروا أنها تنهش وتعضّ ولا تقتل . ولم أكتب هذا لتقرّ به ، ولكنه رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبنى الإقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يُعجبنى الإنكار له . ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل . وبعد هذا فاعرف مواضع الشكّ وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشكّ في المشكوك فيه تعلماً . فلو لم يكن في ذلك إلّا تعرّف التوقف ثم

( ١ ) من كتاب « حجج النبوة » .

( ٢ ) الدساس : حية خبيثة .

( ٣ ) الأروية : أنثى الرعول .

( ٤ ) المشيمة : محل الولد ، تخرج معه عند الولادة .

التثبت ، لقد كان ذلك مما يُحتاج إليه . ثم اعلم أن الشك في طبقات  
عند جميعهم ، ولم يُجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف .  
ولما قال أبو الجهم للمكيّ : أنا لا أكاد أشك ؛ قال المكيّ : وأنا  
لا أكاد أوقن . ففخر عليه المكيّ بالشك في مواضع الشك ، كما فخر  
عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين<sup>(١)</sup> .

### التعسف في التفسير

تعرض الجاحظ في اعتزاله لكثير من أمور الدين وكثير من يعدون أنفسهم علماء في تلك الأمور،  
وقد عمل على تفنيد آرائهم تارة بالحجة الراهنة ، وطوراً بالهزء والتهكم .

زعم بعض المفسرين أن السنور<sup>(٢)</sup> خلق من عطسة الأسد ، وأن  
الخنزير خلق من سلحة<sup>(٣)</sup> الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل  
سفينة نوح لما تأذوا بكثرة الفار وشكوا إلى نوح ذلك ، سأل ربه  
الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس . فلما عطس خرج من منخريه  
زوج سنانير من ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن والأنثى من  
المنخر الأيسر ، فكفاهم مؤونة الجرذان . ولما تأذوا برائحة نجوها<sup>(٤)</sup>  
شكوا ذلك إلى نوح وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح ،

(١) من كتاب « الحيوان » الجزء ٦ ص ١٠ .

(٢) السنور : الهر .

(٣) السلحة : التغوط والنجو .

(٤) النجو : ما يخرج من البطن من ريح أو غائط .



فسلح زوج خنازير ، فكفياهم مؤونة رائحة النَجْو . وهذا الحديث نافق عند العوامّ وعند بعض القُصّاص<sup>(١)</sup> .

### تخليط بعض العلماء

شاعت الطريقة العلمية في عهد الجاحظ من استقراء وتحري وإعمال العقل ، والبلوغ إلى الحقيقة عن طريق الشك والاختبار وما إلى ذلك ، ويظهر ذلك في ما يلي :

ومّا لا أكتب لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلّا كل وقّاح<sup>(٢)</sup> ، أخبار بعض العلماء وبعض من يؤلّف الكتب ويقرؤها ويُدّرس أهل العِبر<sup>(٣)</sup> ويتحفّظها . زعموا أن الضبع يكون عامّاً ذكراً وعامّاً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . قال الفضل بن إسحق : أنا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد ، قال : ومن الغصن ما يكون مثل الأكر . وقد خبرني بذلك غيره ، وهو يُشبه تحوّل الأنثى ذكراً والذكر أنثى . وقد ذكرت العرب في أشعارها الضباع والذئب والسبع والعِسبار<sup>(٤)</sup> وجميع الوحوش والحشرات والأحناش ، وهم أخبر الخلق بشأن الضبع ، فكيف تركت ما هو أعجب وأطرف . وقد ذكرت العلماء الضباع في مواضع من الفُتيا<sup>(٥)</sup> لم نرَ أحداً ذكر ذلك . وأولئك بأعيانهم هم

(١) من كتاب « الحيوان » الجزء ٥ ص ١٠٦ .

(٢) الوقاح : ذو الوقاحة .

(٣) أي يقرأ عليهم .

(٤) العسبار : ولد الضبع من الذئب ، أو ولد الذئب .

(٥) الفتيا : ما أفتى به العالم ، وهي اسم من أفتى العالم إذا بين الحكم .

الذين يزعمون أن النمر تضع في مشيمة<sup>(١)</sup> واحدة جرّوا<sup>(٢)</sup> وفي عنقه أفعى  
قد تطوقت به . وإذا لم يأتنا في تحقيق الأخبار شعر شائع أو خبر مستفيض  
لم نلتفت لِفَتته<sup>(٣)</sup> .

## الجاحظ وأرسطاطاليس

سار الجاحظ على طريقة علمية ، وقد اعتمد أرسطو في كتاب الحيوان ، إلا أنه لا ينقاد إلى  
كل أقواله وآرائه ، ويعرف أن العلم يتطور ويتقدم ، وما هو ذا يتعرض له ويقف عند بعض  
آرائه موقفاً يشبه الحيادي فيقول :

ذكر صاحب المنطق<sup>(٤)</sup> أن الطير الكبير الذي يُسمى باليونانية  
« أغتيوليس » يُحْكَمُ عِشَّهُ وَيَتَقَنَّهُ ، وَيَجْعَلُهُ مُسْتَدِيرًا مُدَاخِلًا كَأَنَّهُ كُرَّةٌ  
مَعْمُولَةٌ . وَرَوَى أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذَا الطَّائِرَ يَجْلِبُ الدَّارَصِينِيَّ<sup>(٥)</sup> مِنْ  
مَوْضِعِهِ ، فَيَفْرِشُ بِهِ عُشَّهُ ، وَلَا يَعِشُ إِلَّا فِي أَعَالَى الشَّجَرِ الْمُرْتَفِعَةِ  
الْمَوَاضِعِ . قَالَ : وَرَبَّمَا عَمِدَ النَّاسُ إِلَى سَهَامٍ يَشْدُونَ عَلَيْهَا رِصَاصًا ثُمَّ يَرْمُونَ  
بِهَا أَعَشَّتْهَا فَيَسْقُطُ عَلَيْهِمُ الدَّارَصِينِيُّ فَيَلْتَقِطُونَهُ وَيَأْخُذُونَهُ . . . وَلَسْتُ أَدْفَعُ  
خَبَرَ صَاحِبِ الْمَنْطِقِ عَنْ صَاحِبِ الدَّارَصِينِيِّ ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَعْرِفُ  
الْوَجْهَ فِي أَنَّ طَائِرًا يَنْهَضُ مِنْ وَكْرِهِ فِي الْجِبَالِ أَوْ بِفَارِسٍ أَوْ بِالْهِنِّ ،  
فَيُؤَمُّ وَيَعْمِدُ نَحْوَ بِلَادِ الدَّارَصِينِيِّ وَهُوَ لَمْ يَجَاوِزْ مَوْضِعَهُ ، وَلَا قَرَبَ مِنْهُ ؛

( ١ ) المشيمة : محل الولد تخرج معه عند الولادة .

( ٢ ) الجرّو : ولد كل سبع .

( ٣ ) من كتاب « الحيوان » - الجزء ٧ ص ٤٩ .

( ٤ ) صاحب المنطق : أرسطو .

( ٥ ) الدارصيني : شجر هندي يكون بتخوم الصين كالرمان .

وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد<sup>(١)</sup> أو من القواطع<sup>(٢)</sup> .  
 وإن كان من القواطع فكيف يقطع الصّحصحان<sup>(٣)</sup> الأملس و بطون الأودية  
 وأهضام<sup>(٤)</sup> الجبال بالتدويم<sup>(٥)</sup> في الأجواء وبالمضي على السمّت<sup>(٦)</sup> ، لطلب  
 ما لم يره ولم يشمه ولم يذقه . وأخرى فإنّه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه  
 ما يصير فراشاً له ومهاداً إلا بالاختلاف<sup>(٧)</sup> الطويل . وبعد فإنّه ليس بالواطي<sup>(٨)</sup>  
 الوثير<sup>(٩)</sup> ، ولا هو له بطعام . فأنا وإن كنت لا أعرف العلّة بعينها  
 فلست أنكر الأمور من هذه الجهة ؛ فاذكر هذا<sup>(١٠)</sup> .

### الجرذ والعقرب

يزعمون أنهم لم يروا قتالاً قطّ بين بهيمتين ولا سبّعين<sup>(١٠)</sup> أشدّ من  
 قتال يكون بين جرّذَيْن . فإذا رُبط أحدهما بطرف خيط وشد رجل

(١) الأوابد : غير المقيمة .

(٢) القواطع : المقيمة .

(٣) الصّحصحان : ما استوى من الأرض .

(٤) الأهضام : بطون الأودية .

(٥) التدويم : التحليق .

(٦) السمّت : الطريق والمحجة .

(٧) الاختلاف إلى المكان : التردد إليه .

(٨) الوثير : الوطيء اللين .

(٩) من كتاب « الحيوان » الجزء ٣ ص ١٦٢ .

(١٠) السبع : المفترس من الحيوان مطلقاً .

الآخر بالطرف الآخر فلهما عند ذلك من الجَلَب<sup>(١)</sup> والخمش والعض<sup>(٢)</sup> والتَّنيب<sup>(٣)</sup> والعِفَاس<sup>(٤)</sup> ما لا يوجد بين شيئين من ذوات العقار<sup>(٥)</sup> والهراش<sup>(٦)</sup>. إلا أن ذلك ما دام في الرِّباط ؛ فإذا انحَلَّ وانقطع ولى كل واحد منهما عن صاحبه وهرب في الأرض وأخذ خلاف جهة الآخر .  
 وإن جُعِلَا في إناء من قوارير ، أعنى الجُرذ والعقرب — وإنما ذكرت القوارير لأنها لا تستر عن أعين الناس صنعهما ، ولا يستطيعان الخروج للملاسة الحيطان — فالفارة عند ذلك تَحْتَل<sup>(٧)</sup> العقرب . فإن قبضت على إبرتها قرصتها ، وإن ضربتها العقرب ضَرْباً كثيراً فاستنفدت سمها كان ذلك من أسباب حتفها<sup>(٧)</sup> .

(١) الجلب : اختلاط الأصوات .

(٢) التنيب : العض بالأنياب .

(٣) العفاس : الضرب بالرجلين .

(٤) العقار : المناقرة .

(٥) الهراش : الحصام .

(٦) ختله : خدعه وأخذه بالحيلة .

(٧) من كتاب « الحيوان » — الجزء ٥ ص ٧٧ .



### ٣ - الجاحظ مصوّر عصره

#### ١ - المذاهب والنزعات الدينية

#### الزنادقة وكتبهم

كثّر الزنادقة في عهد الجاحظ واهتم لذلك الخلفاء ، فراح الجاحظ يضرب على أيديهم ويظهر فساد عملهم . وهو في ما يل يدلي برأيه في التأليف والمؤلفات فيقول :

لو كانت كتب الزنادقة كتب حكم ، وكتب فلسفة ، وكتب مقائيس ، وسنن نبين وتبين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تُعرف الناس أبواب الصناعات ، أو سُبُل الكسب والتجارات ، أو كتب ارتفاعات<sup>(١)</sup> ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب — وإن كان ذلك لا يُقَرِّب من غنى ولا يُبعد من مأثم — لكانوا ممن قد يجوز أن يُظنّ بهم تعظيم البيان ، والرغبة في التبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم المِلَّة . . . والذي يدلّ على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ، ولا مسألة كلاميّة ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا منازعة عن دين ، ولا مناظرة عن نحلة<sup>(٢)</sup> . . . لا ترى فيها موعظة حسنة ، ولا حديثاً موفّقاً ، ولا تدبير معاش ،

(١) الارتفاع : الانتفاع .

(٢) النحلة : جمعها نحل ، المذهب والديانة .

ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ؛ فأى كتاب أجهل ، وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعة والتخروج بالديانة على جهة الاستبصار<sup>(١)</sup> والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين . والناس لا يحبون إلا ديناً أو دنياً .

### مناظرة بين المأمون وأبي على الزنديق

شاعت في عصر الجاحظ المناظرات ، كما كانت شائعة عند اليونان ، وكانت وليدة العلم والسعي وراء الحقيقة في جميع ميادين المعرفة . وقد فسحت لها الحرية الدينية في المجال الواسع . وكان المأمون من الداعين إليها والمشاركين فيها رامياً من ورائها إلى اجتماع الطوائف على ما هو أصلح للدين . إلا أنه كان يأبى الشتم والبذاءة في المناظرات ، لأن الشتم عى والبذاءة لؤم .

ومسألة أخرى سأل عنها أمير المؤمنين الزنديق الذي كان يُكنى بأبي على ، وذلك عندما رأى من تطويل محمد بن الجهم ، وعجز العُتبي ، وسوء فهم القاسم بن سيار ، فقال له المأمون : أسألك عن حَرْفَيْن فقط ، خَبَّرْنِي هل نَدِمَ مُسِيءٌ قطُّ على إِسَاءَتِهِ ، أو نكون نحن لم نندم على شيء كان مناقط ؟ قال : بل ندم كثير من المسيئين على إِسَاءَتِهِمْ . قال : فخَبِّرْنِي عن الندم على الإساءة ، إِسَاءَةٌ أو إِحْسَانٌ ؟ قال : إِحْسَانٌ . قال : فالذي ندم هو الذي أساء أو غيره ؟ قال : الذي ندم هو الذي أساء . قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر ، وقد بطل قولكم : إن الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر

الرحمة . قال : فإنني أزعـم أن الذي أساء غير الذي ندم . قال : فندم على شيء كان منه ، أو على شيء كان من غيره ؟ فقطعه بمسأـلته ، ولم يتب ولم يرجع حتى مات<sup>(١)</sup> .

## المانوية

المانوية أصحاب ماني وقد قال بمبدأين في العالم : مبدأ الخير ومبدأ الشر .

إن أناساً حين جهلوا الأسباب والمعاني ، وقصّروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها ، خرجوا إلى الجحود والتكذيب ، حتى أنكروا خلق الأشياء ، وزعموا أن كونها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بُنيت إتقنَ بناء ، وفرشت أحسن فرش ، وأُعدت فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب ، ووضع كلُّ شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير ، فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما أُعدت فيها ، ورُبّما عثر الواحد منهم بالشيء قد وُضع في موضعه وأُعدت لشأنه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمر وتسخط وذمّ الدارَ وبانيها .

فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وأنهم لما غيّبت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعِلل في الأشياء ، صاروا يحولون في هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه في إتقان خلقته ،

(١) من كتاب « الحيوان » الجزء الرابع ص ١٤١ .

وصواب هيئته ، وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأرب فيه ، فيُسرع إلى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والإحالة<sup>(١)</sup> ، كالذي أقدمت عليه وجاهرت به المنانئة الكفرة ، وأشباههم من أهل الضلال . فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ، ووقفه لتأمل هذه الخليقة ، والوقوف على ما في خلقها من لطف التدبير ، وصواب التقدير ، بالدلائل القائمة فيها ، أن لا يقصّر في إظهار ما بلغه علمه من ذلك ، بل يجهد في نشره وإذاعته وإيراده على المسامع والأذهان ، لتقوى دواعي الإيمان ، وتخب مكيدة الشيطان .

### الجاحظ والمجوس

انتشرت الحرية الدينية في عهد الجاحظ ، واتسع المجال للمساجلات الكلامية والمعارضات المذهبية حتى إن المجوس أنفسهم كانوا يمارضون علماء المسلمين ، ومن ذلك ما رواه الجاحظ إذ قال :

قد عارضني بعض المجوس<sup>(٢)</sup> وقال : فلعلّ أيضاً صاحبكم إنما توعد أصحابه بالنار ، لأنّ بلادهم ليست ببلاد ثلج ، ولا دَبَق<sup>(٣)</sup> ، وإنما هي ناحية الحرور<sup>(٤)</sup> والوهج والسموم<sup>(٥)</sup> ، لأنّ ذلك المكروه أزجر لهم . فرأى هذا المجوسيّ أنّه قد عارضني ، فقلت له : إنّ أكثر بلاد العرب

(١) الإحالة : المحال والباطل .

(٢) « المجوس » : مذهب الفرس يجعلون أصل العالم النور والظلمة إلا أن النور أزل والظلمة محدثة . وتدور فلسفتهم على سبب امتزاج الظلمة بالنور ، وخلاص النور من الظلمة وهو المعاد .

(٣) الدبق : ريح وثلج ، معرب « دمه » بالفارسية .

(٤) الحرور : الريح الحارة .

(٥) السموم : الحر الشديد النافذ في المسام .



موصوفة بشدة الحر في الصيف ، وشدة البرد في الشتاء ، لأنها بلاد  
صخور وجبال ، والصخر يقبل الحر والبرد ، ولذلك سميت الفرس  
بالفارسية العرب والأعراب : « كهيان » ، و « الكه » بالفارسية هو الجبل .  
فمتى أحبت أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء ، وحرها في  
الصيف ، فانظر في أشعارهم ، وكيف قسموا ذلك ، وكيف وصفوه ،  
لتعرف أن الحالتين سواء عندهم في الشدة . والبلاد ليس يشتد بردها  
على كثرة الثلج وقلته ، فقد تكون بلدة أبرد وثلجها أقل ؛ والماء  
ليس يجمد للبرد فقط ، فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن  
نصيبها من البرد أوفر ؛ وقد تكون الليلة باردة جدًا ، وتكون متغيرة ،  
فلا يجمد الماء ، ويجمد فيما هو أقل منها بردًا ، وقد يختلف جمود الماء في  
الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون . وقد خبرني من  
لا أرتاب بخبره أنهم كانوا في موضع من الجبل يستقشون<sup>(١)</sup> به بلبس  
المبطنات ، ومتى صبوا ماء في إناء زجاج ووضعوه تحت السماء جمد من  
ساعته . فليس جمود الماء بالبرد فقط ، ولا بد من شروط ، ومقادير ،  
واختلاف جواهر ، ومقابلات أحوال ، كسرعة البرد في بعض الأذهان ،  
وإبطائه عن بعض ، وكاختلاف عمله في الماء المغلي ، وفي الماء المتروك  
على حاله ، وكاختلاف عمله في الماء والنيذ ، كما يعتري البول من  
الخبثورة<sup>(٢)</sup> والجمود ، على قدر طبائع الطعام والقلة ، والزيت خاصة يصيبه

---

(١) يستقشون : يتخطون .

(٢) الخبثورة : الفلف .

المقدار القليل من النار فيستحيل من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحرّ . وحجة أخرى على المجوس ، وذلك أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال لم أبعث إلّا إلى أهل مكة لكان له متعلّق من جهة هذه المعارضة ، فأما وأصل نبوّته ، والذي عليه مخرج أمره ، وابتداء مبعثه إلى ساعة وفاته ، أنّه المبعوث إلى الأحمر والأسود وإلى الناس كافّة ، وقد قال الله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . » وقد قال تعالى : « نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » ؛ فلم يبقَ أن يكون مع ذلك قولهم معارضة ، وأن يُعدّ من باب الموازنة<sup>(١)</sup> .

### ب — الشعراء والقيان وأصحاب اللهو

#### الشعراء

ما ظنك بالشّعراء والخطباء الذين إنما تعلموا المنطق لصناعة التكشّب<sup>(٢)</sup> ؟ وهؤلاء قوم بودّهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حدّ السّلامة إلى الغفلة ، حتى لا يكون للأموال حارس ، ولا دونها مانع ! فاحذرهم ، ولا تنظر إلى بزة أحدهم ، فإن المسكين أقنع منه ؛ ولا تنظر إلى موكبه ، فإن السائل أعفّ منه . واعلم أنّه في مَسْكَ مِسْكِين<sup>(٣)</sup> ، وإن

(١) من كتاب « الحيوان » الجزء ٥ ص ٣٥ .

(٢) التكشّب : طلب الرزق .

(٣) أي هوفى جلد مسكين ، أي أنه حقير .

كان في ثياب جواد ؛ وروحه روح نذل ، وإن كان في جرم<sup>(١)</sup>  
ملك ؛ وكلهم ، وإن اختلفت وجوه مسئلتهم ، واختلفت أقدار مطالبهم ،  
فهو مسكين . إلا أن واحداً يطلب العلق<sup>(٢)</sup> ، وآخر يطلب الخرق ،  
وآخر يطلب الدوانيق<sup>(٣)</sup> ، وآخر يطلب الألوف . فجأة هذا هي جهة  
هذا ، وطعمة<sup>(٤)</sup> هذا هي طعمة هذا ، وإنما يختلفون في أقدار ما يطلبون ،  
على قدر الخلق والسبب . فاحذر رقام<sup>(٥)</sup> ، وما نصبوا لك من الشرك ،  
وأحرُسْ نعمتك وما دسوا لها من الدواهي ، واعملْ على أن سيخرم  
يَسْتَرِقُ الدَّهْنَ ، ويختطفُ البصر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » . وسمعُ عمر بن عبد العزيز رجلاً يتكلم  
في حاجة فقال : « هذا والله السِّخْرُ الحلال » . وقد قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : « لا خلافة »<sup>(٦)</sup> . واحذر احتمال مديحهم ، فإن  
مُحْتَمِلِ المديح في وجهه كداح نفسه . إن مالك لا يسع مريديه ، ولا  
يبلغ رضى طالبيه ، ولو أرضيتهم بإسقاط مثلهم لكان ذلك خُسراناً  
مُبيناً ، فكيف ومن يسخط أضعاف من يرضى ؟ وهجاء الساخط أضرُّ

---

(١) الجرم : الجسم .

(٢) العلق : النفيس من كل شيء .

(٣) الدوانيق ج دائق وهو سدس الدرهم ، معرب « دائق » الفارسية ، ومعناه الحبة ( أى

أنه بوزن الحبة من الحنطة ونحوها ) .

(٤) الطعمة : الرزق .

(٥) الرقيج رقية وهى العوذة .

(٦) أى لا خداع .

من فقد مديح الراضى . وعلى أنهم إذا اعتوروك<sup>(١)</sup> بمشاقصهم<sup>(٢)</sup> ،  
وتداولوك بسهامهم ، لم ترَ ممن أرضيته بإسقاطهم أحداً يناضل عنك ،  
ولا يهاجى شاعراً دونك ، بل يخليك غرضاً لسهامهم ، ودريئة<sup>(٣)</sup>  
لنبالهم ، ثم يقول : وما كان عليه لو أرضاهم ؟ فكيف يرضيهم ورضى  
الجميع شيء لا يُنال ؟ وقد قال الأول : وكيف يتفق لك رضى المختلفين ؟  
وقالوا : منع الجميع أرضى للجميع<sup>(٤)</sup> . . .

## كَذِبٌ بِكَذِبٍ

ومثل هذا الحديث ما حدثني به محمد بن يسير<sup>(٥)</sup> عن والٍ كان  
بفارس ، إما أن يكون خالداً أخا مهرويه ، أو غيره ، قال : بينا هو  
يوماً في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب<sup>(٦)</sup> جهده ،  
إذ نجم<sup>(٧)</sup> شاعر من بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرظه<sup>(٨)</sup> ومجّده ،  
فلما فرغ قال : قد أحسنت . ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة  
آلاف درهم ! ففرح الشاعر فرحاً قد يُستطار<sup>(٩)</sup> له ، فلما رأى حاله قال :

(١) اعتوروك : تداولوك .

(٢) المشاقص : ج مشقص ، وهو النصل العريض أو الطويل .

(٣) الدريئة : الهدف .

(٤) من كتاب « البخل » ص ٢٧٤ .

(٥) محمد بن يسير : شاعر بصرى .

(٦) احتجب جهده : تخفى ما استطاع .

(٧) نجم : ظهر .

(٨) قرظه : مدحه .

(٩) قد يستطار له : أى قد يستخف الإنسان ويذهله .



وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ، اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده ، فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وإن فرحتَ ليتضاعف على قدر تضاعف القول ، أعطه يا فلان أربعين ألفاً ! فكاد الفرح يقتله ! فلما رجعتُ إليه نفسه قال له : أنت — جُعِلْتُ فداك — رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحاً ، زدتنى فى الجائزة ، وقبولُ هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له<sup>(١)</sup> ، ثم دعا له وخرج . قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً تأمر له بأربعين ألف درهم ! قال : ويلك ! وتريد أن تعطيه شيئاً ؟ قال : ومن إنفاذ أمرك بد ؟ قال : يا أحمق إنما هذا رجل سرتنا بكلام ، وسررتنا بكلام ! هو حين زعم أنى أحسنُ من القمر ، وأشدُّ من الأسد ، وأن لسانى أقطع من السيف ، وأن أمرى أنفذ من السنان ، جعل فى يدي من هذا شيئاً أرجع به إلى شيء ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ؟ ولكنه قد سرتنا حين كذب لنا ، فنحن أيضاً نسرّه بالقول ، ونأمر له بالجوائز ، وإن كان كذباً ، فيكون كذب بكذب ، وقول بقول ؛ فأما أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعل ، فهذا هو الخسران الذى ما سمعت به<sup>(٢)</sup>

( ١ ) يقول : قبول هذه الزيادة المتواصلة والثبات فى مكان من غير أن أخرج دليل على أنى أجده العطاء قليلاً ، فأقل من الشكر له لأنال الزيادة فيه ، ولهذا أريد الخروج .

( ٢ ) من كتاب « البخلاء » ص ٤٥ .

## القَيْنَة

كثُر الأرقاء في عهد الجاحظ ، وكثر بينهم من يحسن صناعة الغناء ، فكتب الجاحظ رسالة في القيان ، وبين حالهن في عصر تعددت فيه النزعات وشاع الفساد ، فقال :

كيف تَسَلِّمُ القَيْنَة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة . وإنما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الألسُن والأخلاق بالمنشأ . وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدُّ عن ذكر الله من هو الحديث ، وصنوف اللعب والأخايث ، وبين اُخلعاء والمُجَّان ، ومَن لا يُسمع منه كلمة جِدَّة ، ولا يرجع إلى فقه ولا دين ، ولا صيانة مروءة ، وتروى الحاذقة منهنَّ أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصَّوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلاَّ عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بُنيت كلها على ذكر الزَّنى والقيادة ، والعشق والصَّبوة ، والشوق والغُلة<sup>(١)</sup> ، ثمَّ لا تنفك من الدراسة لصناعتها ، مُنكبةً عليها ، تأخذ من المطارحين<sup>(٢)</sup> الذين طَرَحهم كلُّه تجميش<sup>(٣)</sup> ، وإنشادهم مُراودة ، وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها ، لأنها إن جفَّتْها تفلَّتت ، وإن أهملتها نقصت ، وإن لم تستفِد منها وقفت ، وكل واقف فإلى نُقصان أقرب ، وإنما

(١) الغُلة : الشهوة والشبق .

(٢) المطارحون : الذين يعلمون الغناء .

(٣) التجميش : المغازلة والملاعبة .

فرق ما بين أصحاب الصناعات ، وبين مَنْ لا يُحسنها ، التزيّد فيها ،  
والمواظبة عليها ، فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت العفة لم  
تقدر عليها<sup>(١)</sup> .

## قيص السكران

سكر زبيدة<sup>(٢)</sup> ليلة فكسا صديقاً له قيصاً ، فلما صار القيص على  
النديم خاف البدوات<sup>(٣)</sup> ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فمضى من  
ساعته إلى منزله فجعله برنكناً<sup>(٤)</sup> لامرأته ، فلما أصبح سأل عن القيص  
وتفقدته ، فقيل له : إنك قد كسوته فلاناً ، فبعث إليه ، ثم أقبل عليه ،  
فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراؤه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز !  
وبعد فإني أكره أن لا يكون لى حَمدٌ ، وأن يوجه الناس هذا منى على  
السكر ، فرّده على حتى أهبه لك صاحباً عن طيب نفس ، فإني أكره

(١) من « رسالة في القيان » .

(٢) هو زبيدة بن حميد الصيرفي رجل غني من أهل البصرة كان صيرفياً تاجر رقيق .

(٣) البدوات جمع بداءة وهي ما يبدو من الرأي . وتطلق البدوات على الآراء المختلفة .

(٤) البرنكان هو الكساء الأسود أو الكساء مطلقاً ، وقد جاءت الكلمة في الشعر فيما أنشد

الجاحظ :

إني وإن كان إزارى خلقا وبرنكاني سملا قد أخلقا

قد جعل الله لساني مطلقا

وقد كتب عنه العلامة دوزي Dozy فصلا في كتابه « معجم الملابس »

Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes.

ويصفه بأنه كساء كبير يلف الجسم كله يستعمله الرجال والنساء . . . ( انظر ص ٢٧٣ - ٢٧٥ من

« البخلاء » تحقيق طه الحاجري ) .

أن يذهب شيء من مالى باطلاً ، فلما رآه قد صمّم ، أقبل عليه فقال :  
يا هناء<sup>(١)</sup> ! إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤخذون بشيء من ذلك ،  
فرد القميص عافاك الله . قال له الرجل : إني والله قد خفت هذا بعينه ،  
فلم أضع جنبي إلى الأرض حتى جَيِّئْتُه<sup>(٢)</sup> لامرأتى ، وقد زدتُ في  
الْكُمَيْنِ ، وحذفت المقاديم<sup>(٣)</sup> ، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذ .  
قال : نعم ! آخذه لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك . قال : فإنه عند  
الصَّبَاغِ ، قال : فهاته ! قال : ليس أنا أسلمته إليه . فلما علم أنه قد وقع  
قال : بأبي وأمي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع  
الشرَّ كله في بيت وأغلق عليه فكان مفتاحهُ الشُّكْرُ<sup>(٤)</sup> !

### ج - الحياة الاقتصادية

## كلام بكلام

حدثني إبراهيم بن السُّنْدِي قال : كان على « ربيع الشاذروان »<sup>(٥)</sup>

(١) يا هناء : من لفظة « هن » كناية عن كل اسم جنس ومعناها شيء . ويقال للرجل :  
يا هن أقبل ، ويا هنان أقبلا ، ويا هنون أقبلوا . وتدخل على آخرها الهاء لبيان الحركة ، فتقول :  
يا هنه ، وتشبع الحركة فتتولد الألف ، فتقول : يا هناء أقبل .

(٢) جيب القميص : جعل له جيبياً ، والمقصود هنا أنه فصله لامرأته .

(٣) المقاديم ج مقدم وهو ضد المؤخر .

(٤) من كتاب « البخل » ص ٦٠ .

(٥) ربيع الشاذروان : لعله حتى من أحياء بغداد ، فتكون بغداد مقسمة إلى أرباع ،  
ويكون هذا الشيخ مولى على هذا الربع يقوم بعمل القاضى أو ما أشبه ذلك ، أو لعله بناء من الأبنية  
المكيئة تشبهاً له بشاذروان مدينة تستر الذى يقول ابن خرداذبه إنه مبنى بالصخر وأعمدة الحديد  
وملاط الرصاص . أو لعله بحسب وصف البشارى عمل من الأعمال الهندسية التى كان يقصد بها إلى  
إلى تنظيم الري فهو نوع من القناطر أو الخزانات نسب الربع إليه . (انظر البخل تحقيق طه الحاجرى).



شيخ لنا من أهل خراسان ، وكان مصححاً ، بعيداً من الفساد ، ومن الرشاء<sup>(١)</sup> ، ومن الحكم بالهوى ، وكان حفيظاً جداً ، وكذلك كان في إمساكه ، وفي بخله ، وتدنيقه<sup>(٢)</sup> في نفقاته ، وكان لا يأكل إلا ما لا بد منه ، ولا يشرب إلا ما لا بد له منه ، غير أنه إذا كان في غداة كل جمعة ، حمل معه متديلاً فيه جردقتان<sup>(٣)</sup> ، وقطع لحم سكباج<sup>(٤)</sup> مبرّد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرّة فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان<sup>(٥)</sup> ، وأربع بيضات ، ليس منها بدّ ، ومعه خلال<sup>(٦)</sup> ، ومضى وحده حتى يدخل بعض بساتين الكرخ ، وطلب موضعاً تحت شجرة ، وسط خضرة ، وعلى ماء جارٍ ؛ فإذا وجد ذلك جلس ، وبسط بين يديه النديل ، وأكل من هذا مرّةً ، ومن هذا مرّةً ، فإن وجد قيم ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لي بهذا ، أو أعطني بهذا رطباً<sup>(٧)</sup> — إن كان في زمان الرطب — أو عنباً — إن كان في زمان العنب — ويقول له : إياك إياك أن تحاييني<sup>(٨)</sup> ولكن تجود<sup>(٩)</sup> لي ، فإنك إن فعلت لم آكُله ، ولم أعد إليك ، واحذر العنب فإن المغبون

(١) الرشاء : لعل صوابه « الرشى » من الرشوة .

(٢) التدقيق : التقدير .

(٣) الجردقة : الرغيف معرب « كرو » بالفارسية . وقد ذكره أبو النجم في شعره حيث قال :  
كان بصيراً بالرغيف الجردق .

(٤) السكباج : مرق يعمل من اللحم والخل ، وربما جعل فيه زعفران . وهو معرب « سكبا » بالفارسية ومعناه طعام بخل .

(٥) الأشنان : ( يوناني ) نوع من النبات .

(٦) الخلال : ما تخلل به الأسنان .

(٧) الرطب : التمر قبل تمام نضجه .

(٨) حاياء في البيع : ساهله ، وقد تكون العبارة هنا : « إياك أن تحاييني » أي تكلفني الحياء .

(٩) تجود : تخير الجيد .

لا محمود ولا مأجور . فإن أتاه به أكل كل شيء معه ، وكل شيء  
أتى به . ثم تَخَلَّلَ<sup>(١)</sup> ، وغسل يديه . ثم يمشى مقدار مئة خطوة ،  
ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة ، ثم ينتبه فيغتسل ويمضي إلى المسجد .  
هذا كان دأبه كل جمعة . قال إبراهيم : فينا هو يوماً من أيامه يأكل  
في بعض المواضع ، إذ مرَّ به رجلٌ فسلم عليه ، فرد السلام ثم قال :  
هَلُمَّ عافاك الله . فلما نظر إلى الرجل قد اثنى راجعاً يريد أن يَطْفِرَ<sup>(٢)</sup>  
الجدول أو يتعدى النهر قال له : مكانك ! فإن العجلة من عمل  
الشیطان . فوقف الرجل ، فأقبل عليه الخراساني وقال : تريد ماذا ؟ قال :  
أريد أن أتعدى ! قال : ولم ذلك ، وكيف طمعت في هذا ؟ ومن أباح  
لك مالى ؟ قال الرجل : أو ليس قد دعوتني ؟ قال : ويلك ! لو  
ظننت أنك هكذا أحق ما رددت عليك السلام ! الأمر فيما نحن فيه  
أن تكون إذا كنت أنا الجالس ، وأنت المار ، تبدأ أنت فتسلم ،  
فأقول أنا حينئذٍ مجيباً لك : وعليكم السلام ، فإن كنت لا آكل  
شيئاً سكتُ أنا ، ومَضَيْتَ أنت ، وقعدتُ أنا على حالي . وإن كنت  
آكل ، فها هنا بيان آخر : وهو أن أبدأ أنا فأقول : « هَلُمَّ » وتجيِبُ  
أنت فتقول : « هنيئاً » ، فيكون كلام بكلام ! فأما كلام بفعال ، وقولُ  
بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف ! وهذا يخرج علينا فضلاً كثيراً !  
قال : فورد على الرجل شيء لم يكن في حسابه ، فَشَهِرَ<sup>(٣)</sup> بذلك في

(١) تبخل : أزال الخلالة ، أى بقية الطعام ، من بين أسنانه .

(٢) طفر : وثب في ارتفاع .

(٣) أى الخراساني .

تلك الناحية ، وقيل له<sup>(١)</sup> : قد أعفيناك من السلام ومن تكلف الرد .  
قال : ما بى إلى ذلك حاجة ، إنما هو أن أعفى أنا نفسى من « هلم »  
وقد استقام الأمر<sup>(٢)</sup> .

## مريم الصنّاع

قال أصحابنا من السجديين : اجتمع ناسٌ في المسجد ممن ينتحل  
الاقتصاد في النفقة ، والتنمية للمال ، ( من أصحاب الجمع والمنع<sup>(٣)</sup> ) وقد  
كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب<sup>(٤)</sup> ... فأقبل  
عليهم شيخٌ فقال : هل شعرتُم بموت مريم الصنّاع<sup>(٥)</sup> فإنها كانت من  
ذوات الاقتصاد ، وصاحبة إصلاح ، قالوا : فحدثنا عنها . قال : نوادرُها  
كثيرةٌ ، وحديثها طويل ، ولكنى أخبرُكم عن واحدةٍ فيها كفايةٌ ، قالوا :  
وما هى ؟ قال : زَوَّجَتْ ابنتَها وهى بنتُ اثنتى عشرةً ، فخلّتها الذهب  
والفضة ، وكستها المروى<sup>(٦)</sup> والوشى ، والقز والخز ، وعلقت المعصفر<sup>(٧)</sup> ، ودقت  
الطيب ، وعظمت أمرها فى عينِ الختن<sup>(٨)</sup> ورفعت من قدرها عند الأحماء<sup>(٩)</sup> ،

( ١ ) أى جعل أهل الناحية يقولون للخراساني

( ٢ ) من كتاب « البخلاء » ص ٤٣ .

( ٣ ) كناية عن البخلاء .

( ٤ ) التحاب : مصدر تحابَّ : أحب كل واحد صاحبه .

( ٥ ) الصنّاع : الحاذقة فى الصنعة .

( ٦ ) المروى : نسبة إلى بلدة فى العراق على شط الفرات كانت مشهورة بصناعة الثياب .

( ٧ ) المعصفر : المصبوغ بالعصفر ( وهو صبغ أصفر اللون ) من الثياب .

( ٨ ) الختن : الصهر

( ٩ ) الأحماء جمع حمو : أبو زوج المرأة وأبو امرأة الرجل .

فقال لها زوجها : أنى هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عند الله ! قال :  
دعى عنك الجملة ، وهاتى التفسير ، والله ما كنت ذات مال قديماً ، ولا  
ورثته حديثاً ، وما أنت بخائنة فى نفسك ، ولا فى مال بعلك<sup>(١)</sup> ، إلا أن  
تكونى قد وقعت على كنز ؛ وكيف دار الأمر فقد أسقطت عني مؤونة ،  
وكفيتني هذه النأبة ! قالت : اعلم أنى منذ يوم ولدتها ، إلى أن زوجتها ،  
كنت أرفع من دقيق كل عجة حقة<sup>(٢)</sup> ، وكنا كما قد علمت نخبز فى  
كل يوم مرة ، فإذا اجتمع فى ذلك مكوك<sup>(٣)</sup> بعته . قال زوجها :  
ثبت الله رأيك ، وأرشدك ، ولقد أسعد الله من كنت له سكناً ، وبارك  
لمن جعلت له إلفاً<sup>(٤)</sup> .

### المسرجة والقنديل

قال مثنى بن بشير : دخل أبو عبد الله المروزى على شيخ من أهل  
خراسان ، وإذا هو قد استصبح فى مسرجة<sup>(٥)</sup> خزف من هذه الخزفية  
الخضر ، فقال له الشيخ : لا يحىء والله منك أمرٌ صالحٌ أبداً ،  
عائبتك فى مسارج<sup>(٦)</sup> الحجارة ، فأعبتنى<sup>(٧)</sup> بالخزف ! أو ما علمت أن

(١) البعل : الزوج .

(٢) الحقة : ملء الكفين .

(٣) المكوك : معيار يكال به والأصل أنه طاس يشرب به .

(٤) من كتاب « البخلاء » ص ٥٢ .

(٥) المسرجة : السراج .

(٦) المسارج : جمع مسرجة

(٧) أعته : أرضاه

الخرزف والحجارة يحسوان<sup>(١)</sup> الدهن حسوا ؟ قال : جُعِلْتُ فِدَاكَ ! دفعْتُها إلى صديق لي دهان فأتقاه في المصفاة شهرا حتى رَوَيْتُ من الدهن ريبا لا تحتاجُ معه أبداً إلى شيء ! قال : ليس هذا أريدُ ، هذا دواؤه يسيرُ ، وقد وَقَعْتُ عليه ، ولكن ما علمت أن موضع النار من المِسرَجَةِ في طَرَفِ القَتِيلَةِ لا ينفكُ من إحراقه النارُ وتجنيفه وتنشيف ما فيه ، ومتى أَبْتَلَّ بالدهن وتسقاهُ ، عادت النارُ عليه ، فأَكَلَتْهُ ، هذا دأبُهما ، فلو قِست ما يشرب ذلك المكانُ من الدهنِ ، بما يستمدُّه طَرَفُ القَتِيلَةِ منه ، لعلمتَ أن ذلك أكثره . وبعد هذا فإنَّ ذلك الموضع من القَتِيلَةِ والمِسرَجَةِ لا يزالُ سائلا جاريا . ويُقالُ إِنَّكَ متى وضعتَ مِسرَجَةً فيها مصباحٌ ، وأخرى لا مصباحَ فيها ، لم تلبثْ إلا ليلة أو ليلتين ، حتى ترى السفلى ملانةً دهنا . واعتبرْ أيضا ذلك بالملح الذي يوضعُ تحت المِسرَجَةِ ، والنُّخَالَةِ<sup>(٢)</sup> التي تُوضعُ هناك لتسويتها وتصويبها ، كيف تجدهما ينصرانِ دهنا . وهذا كله خسرانٌ وغبنٌ ، لا يَتَهاوَنُ به إلا أصحابُ الفسادِ . على أن المُفسدينَ إنما يُطعمُونَ النَّاسَ ، ويسقُونَ النَّاسَ ، وهم على حالٍ يستخلفون شيئا ، وإن كان روثا<sup>(٣)</sup> . وأنت إنما تُطعمُ النارَ وتسقي النارَ . ومنَ أطعمَ النارَ ، جَعَلَهُ اللهُ يومَ القيامةِ طعاما للنَّارِ ! قالَ الشيخُ : فكيفَ أصنعُ ، جُعِلْتُ فِدَاكَ ؟ قالَ : تَتَّخِذُ قِنْدِيلًا ، فإنَّ الزُّجاجَ أَحْفَظُ من غيره ، والزُّجاجَ لا يعرفُ الرَّشَحَ

(١) حسا : شرب .

(٢) النخالة : ما بقى في المنخل من القشر ونحوه .

(٣) الروث : الزبل .



ولا الذَّشَفَ ولا يَقْبَلُ الأَوْسَاحَ الَّتِي لَا تَزُولُ إِلَّا بِالدَّكِّ الشَّدِيدِ ،  
أو بِاحْرَاقِ النَّارِ . وأَيُّهُمَا كَانَ ، فَإِنَّهُ يُعِيدُ الْمِشْرِجَةَ إِلَى الْعَطَشِ  
الأَوَّلِ ، وَالزُّجَاجُ أَبْقَى عَلَى الْمَاءِ وَالتَّرَابِ مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ ، وَهُوَ  
مَعَ ذَلِكَ مَصْنُوعٌ ، وَالذَّهَبُ مَخْلُوقٌ ، فَإِنْ فَضَّلْتَ الذَّهَبَ بِالصَّلَابَةِ ،  
فَضَّلْتُ الزُّجَاجَ بِالصَّفَاءِ . وَالزُّجَاجُ مُجَلِّ وَالدَّهَبُ مُتَّارٌ ، وَلَآنَ الْفَتِيلَةُ  
إِنَّمَا تَكُونُ فِي وَسْطِهِ ، فَلَا تَحْمَى جَوَانِبُهُ بِوَهْجِ الْمِصْبَاحِ ، كَمَا تَحْمَى بِمَوْضِعِ  
النَّارِ مِنَ الْمِشْرِجَةِ . وَإِذَا وَقَعَ شِعَاعُ النَّارِ عَلَى جَوْهَرِ الزُّجَاجِ ، صَارَ  
الْمِصْبَاحُ وَالْقِنْدِيلُ مِصْبَاحًا وَاحِدًا ، وَرَدَّ الضِّيَاءُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى  
صَاحِبِهِ . وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالشُّعَاعِ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَى وَجْهِ الْمِرَاةِ ، أَوْ عَلَى وَجْهِ  
الْمَاءِ ، أَوْ عَلَى الزُّجَاجَةِ ، ثُمَّ أَنْظِرْ كَيْفَ يَتَضَاعَفُ نُورُهُ ، وَإِنْ كَانَ  
سَقُوطُهُ عَلَى عَيْنِ إِنْسَانٍ أَغْشَاهُ <sup>(١)</sup> وَرَبِّمَا أَعْمَاهُ ، وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ :  
« اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ  
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ  
مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ  
تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ » وَالزَّيْتُ فِي  
الزُّجَاجَةِ نُورٌ عَلَى نُورٍ ، وَضَوْءٌ عَلَى ضَوْءٍ مُضَاعَفٍ ، هَذَا مَعَ فَضْلِ  
حُسْنِ الْقِنْدِيلِ عَلَى حُسْنِ مَسَاجِدِ الْحِجَارَةِ وَالْخَرْفِ <sup>(٢)</sup> .

(١) أَغْشَاهُ : جَعَلَهُ أَغْشَى أَيْ سَيِّئَ الْبَصَرِ .

(٢) كِتَابُ « الْبِخْلَاءِ » ص ٣٦ .

## معاذة العنبرية

حدث شيخ قال : لم أرَ في وضع الأمور مواضعها ، وفي توقيتها غاية حقوقها كماذاة العنبرية . . . أهدى إليها ، العام ، ابن عم لها أضحى فرأيتها كثيبة حزينه ، مفكرة مطرقة . فقلت لها : « مالك يا معاذة ؟ » قالت : « أنا امرأة أرملة ، وليس لي قيم<sup>(١)</sup> ، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي . وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه . وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه ؛ ولكن المرء يعجز ، لا محالة<sup>(٢)</sup> . ولست أخاف من تضييع القليل ، إلا أنه يجرّ تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو أن يجعل كالخطاف<sup>(٣)</sup> ، ويسمر في جذع<sup>(٤)</sup> من جذوع السقف ، فيعلق عليه الزبل<sup>(٥)</sup> والكيران<sup>(٦)</sup> وكل ما خيف عليه من الفأر والتمل والسنانير وبنات وِردان<sup>(٧)</sup> والحيات ، وغير ذلك . وأما المصران فإنه لأوتار

(١) قيم المرأة : زوجها ومن يقوم يأمرها .

(٢) هذا مثل ، ومعناه : لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز .

(٣) الخطاف : الحديدة العوجاء .

(٤) الجذع : ساق النخلة والشجرة ؛ وعلى الجنوع يبنى سقف البيت .

(٥) الزبل جمع زبيل ، وهو القفة أو الجراب أو الوعاء .

(٦) الكيران جمع كور : الرجل ، وهو ما يجعل على ظهر البعير كالسرج .

(٧) بنات وِردان : دويات كريمة الريح تألف الأماكن القلدة في البيوت .

الْمِنْدَفَةِ<sup>(١)</sup> ؛ وَبَنَّا إِلَى ذَلِكَ أَعْظَمَ الْحَاجَةَ . وَأَمَّا قَحْفُ الرَّأْسِ<sup>(٢)</sup> وَاللَّحْيَانِ<sup>(٣)</sup> وَسَائِرِ الْعِظَامِ فَسَبِيلُهُ أَنْ يُكْسَرَ بَعْدَ أَنْ يُعْرَقَ<sup>(٤)</sup> ، ثُمَّ يُطْبَخُ ؛ فَمَا ارْتَفَعَ مِنَ الدِّسَمِ كَانَ لِلصَّبَاحِ وَلِلْإِدَامِ<sup>(٥)</sup> وَلِلْعَصِيدَةِ<sup>(٦)</sup> ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ . ثُمَّ تَوْخِذُ تِلْكَ الْعِظَامِ فَيُوقَدُ بِهَا ؛ فَلَمْ يَرِ النَّاسَ وَقُوداً قَطُّ أَصْنَى وَلَا أَحْسَنَ لَهَباً مِنْهَا . وَإِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ ، فَهِيَ أَسْرَعُ فِي الْقَدْرِ ، لِقَلَّةِ مَا يَخَالِطُهَا مِنَ الدِّخَانِ . وَأَمَّا الْإِهَابُ<sup>(٧)</sup> فَالْجِلْدُ نَفْسَهُ جِرَابٌ . وَالصُّوفُ وَجُوهٌ لَا تُدْفَعُ . وَأَمَّا الْفَرَثُ<sup>(٨)</sup> وَالْبَعْرُ فَخُطْبٌ ، إِذَا جُفِفَتْ ، عَجِيبٌ . «  
ثُمَّ قَالَتْ : « بَقِيَ عَلَيْنَا الِاتْتِفَاعُ بِالْدَمِ ؛ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، لَمْ يَحْرَمْ مِنَ الدَّمِ الْمُسْفُوحِ<sup>(٩)</sup> إِلَّا أَكْلَهُ وَشَرْبَهُ ؛ وَأَنْ لَهُ مَوَاضِعَ يَجُوزُ فِيهَا وَلَا يُمْنَعُ مِنْهَا . وَإِنْ أَنَا لَمْ أَقَعْ عَلَى عِلْمِ ذَلِكَ حَتَّى يَوْضَعَ مَوْضِعَ الِاتْتِفَاعِ بِهِ ، صَارَ كَيْفَةً فِي قَلْبِي ، وَقَذَى فِي عَيْنِي ، وَهَمًّا لَا يَزَالُ يُعَاوِدُنِي . »

فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ رَأَيْتُهَا قَدْ تَطَلَّقَتْ<sup>(١٠)</sup> وَتَبَسَّمَتْ ، فَقُلْتُ : « يَنْبَغِي أَنْ

(١) المندف والمندفة : خشبة النداف التي يندف بها القطن .

(٢) قحف الرأس : العظم الذي فوق الدماغ .

(٣) اللحى : عظم الحنك الذي عليه الأسنان ، (وهما الحيان) .

(٤) عرق العظم : جرده من اللحم .

(٥) الإدَام : ما يؤكل مع الخبز فيطبخه .

(٦) العصيدة : دقيق يلت بالسمن ويطبخ .

(٧) الإهاب : الجلد .

(٨) الفرث : الزبل الذي في الكرش .

(٩) الدم المسفوح أى السائل ، محرم في القرآن .

(١٠) تطلق الوجه : ضد انقبض ؛ يريد : أشرق وجهها وانبسط .

يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم . « قالت : « أجل ، ذكرت  
أن عندى قدوراً شامية جُداً . وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ ،  
ولا أزيد فى قوتها من التلطيح بالدم الحار الدم . وقد استرحت الآن ،  
إذ وقع كل شيء موقعه . »

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : « كيف كان قديد<sup>(١)</sup>  
تلك الشاة ؟ » قالت : « بأبى أنت ! لم يجئ وقت القديد بعد . لنا  
فى الشحم والألية والجنوب<sup>(٢)</sup> والعظم المعروق وغير ذلك معاش ؛ ولكل  
شيء إبان<sup>(٣)</sup> . «<sup>(٤)</sup>

### الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء

قال خاقان بن صبيح : دخلت على رجل من أهل خراسان ، وإذا  
هو قد أتانا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الدقة ، وإذا هو قد ألقى فى  
دهن المسرجة شيئاً من ملح ، وقد علّق على عمود المنارة عوداً  
بنحيط ، وقد حرز فيه حتى صار فيه مكان للرباط . فكان المصباح إذا  
كاد ينطفئ أشخص رأس الفتيلة بذلك . قال : فقلت له : ما بال  
العود مربوطاً ؟ قال هذا عود قد تشرب الدهن ، فإن ضاع ولم يحفظ ،

( ١ ) القديد : اللحم الذى جعل قطعاً وجفف فى الشمس ملوحاً .

( ٢ ) الجنوب ج جنب .

( ٣ ) إبان الشيء : أوانه وحيته .

( ٤ ) من كتاب « البخلاء » .

احتجنا إلى واحدٍ عطشان ، فإذا كان هذا دأبنا ودأبه ضاعَ من دهننا في الشهرِ بقدرِ كفايةِ ليلةٍ ! قال : فينا أنا أتعجب في نفسى وأسألُ اللهَ جلَّ ذكره العافيةَ والسترَ ، إذ دخل شيخٌ من أهل مرو ، فنظر إلى العود فقال : يا أبا فلان ! فررتَ من شيءٍ ووقعت في شيءٍ به ! أما تعلمُ أنَّ الرِّيحَ والشمسَ تأخذان من سائرِ الأشياءِ ؟ أو ليس قد كان البارحةَ عند إطفاء السَّراجِ أروى<sup>(١)</sup> وهو عند إسراجك الليلةَ أ عطشَ ؟ قد كنتُ أنا جاهلاً مثلك حتى وقفتني اللهُ إلى ما هو أرشدُ : اربطُ — عافاك اللهُ — بدَلِ العودِ إبرةً أو مسلةً<sup>(٢)</sup> صغيرةً ، وعلى أن العود والخلال<sup>(٣)</sup> والقصبه ربما تعلقت بها الشعرةُ من قطن الفتيلة إذا سويناهما بها ، فتشخصُ بها ، وربما كان ذلك سبباً لأنطفاء السَّراجِ ، والحديدُ أملسُ ، وهو مع ذلك غيرُ نشافٍ . قال خاقان : فني تلك الليلةَ عرفتُ فضلَ أهلِ خراسانَ على سائرِ الناسِ ، وفضلَ أهلِ مرو على سائرِ أهلِ خراسان<sup>(٤)</sup> .

---

(١) أروى : أكثر ريا .

(٢) المسلة : الإبرة الكبيرة .

(٣) الخلال : الأعواد الدقيقة .

(٤) من كتاب « البخلاء » ص ٣٥ .



## ٤ - الجاحظ رجل العلم والأدب

### تقسيم مخلوقات العالم

وأقول : إن العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء : مُتَّفِق ، ومختلف ، ومتضاد . وكلها في جملة القول : جماد ، ونام . وكانت حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة أن يُقال : نام ، وغير نام . ولو أن الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنام اسماً كما وضعوا للنامي اسماً ، لاتبعنا أثرهم ؛ وإنما ننتهي إلى حيث انتهوا . وما أكثر ما<sup>(١)</sup> تكون دلالة قولهم : « جماد » كدلالة قولهم : « مَوَات » ؛ وقد يفترقان في مواضع بعض الافتراق .

وإذا خرجت من العالم إلى الأفلاك ، والبروج ، والنجوم ، والشمس ، والقمر ، وجدتها غير نامية . ولم تجدهم يسمّون شيئاً منها بجماد ، ولا موات . وليس لأنها تتحرك من تلقاء أنفسها ، لم تُسمَّ مواتاً ولا جماداً . وناسٌ يجعلونها مُدْبِرَة ، وناسٌ غير مُدْبِرَة . ويجعلونها مسخرة وغير مسخرة ، ويجعلونها أحياء من الحيوان ، إذ كان الحيوان إنما يحيا بإحيائها له ، وبما تعطيه وتُعيّره . وإنما هذا منهم رأى . والأُمُّ ، في هذا كله ، على خلافهم . ونحن ، في هذا الموضع ، إنما نعبر عن لغتنا ؛ وليس في لغتنا إلا ما ذكرنا .

والناس يسمّون الأرض جماداً ، وربما يجعلونها مواتاً ، إذا كانت لم

(١) ما الأولى : تعجبية . وما الثانية : مصدرية .

تُنبِت قديماً ، وهى مواتُ الأرض . وذلك كقولهم : « من أحيا أرضاً مواتاً ، فهى له . » وهم لا يجعلون الماء ، والنار ، والهواء ، جماداً ولا مواتاً ، ولا يسمونها حيواناً ، ما دامت كذلك ؛ وإن كانت لا تُضاف إلى النماء والحسن .

والأرض هى أحد الأركان الأربعة التى هى : الماء ، والأرض ، والهواء ، والنار . والاسمان لا يتعاوران عندهم إلا الأرض . ثم النامى على قسمين : حيوان ، ونبات .

والحيوان على أربعة أقسام : شىء يمشى ، وشىء يطير ، وشىء يسبح ، وشىء ينساح<sup>(١)</sup> . إلا أن كل طائر يمشى ؛ وليس الذى يمشى ولا يطير يسمى طائراً .

والنوع الذى يمشى على أربعة أقسام : ناس ، وبهائم ، وسباع ، وحشرات . على أن الحشرات راجعة فى المعنى إلى مشاكلة طباع البهائم والسباع<sup>(٢)</sup> ...

## قوة الحياة

وليس فى الأرض شىء جسمه مثل جسم الحياة إلا والحياة أقوى بدناً منه أضعافاً . ومن قوتها أنها إذا أدخلت رأسها فى جحرها أو فى صدع<sup>(٣)</sup> ، إلى صدرها ، لم يستطع أقوى الناس ، وهو قابض على

(١) ينساح . يمشى على بطنه .

(٢) من كتاب « الحيوان » المقدمة - الجزء الأول ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) الصدع : الشق فى شىء صلب .

ذَنبُهَا بِكِلْتَا يَدَيْهِ ، أَنْ يَخْرِجَهَا ، لَشِدَّةِ اعْتِمَادِهَا ، وَتَعَاوُنِ أَجْزَائِهَا .  
وَلَيْسَتْ بِذِي قَوَائِمٍ لَهَا أَظْفَارٌ ، أَوْ مَخَالِبٌ لَهَا أَظْلَافٌ<sup>(١)</sup> ، تَنْشِبُهَا فِي  
الْأَرْضِ تَتَشَبَّثُ بِهَا وَتَعْتَمِدُ عَلَيْهَا . وَرَبَّمَا انْقَطَعَتْ فِي يَدِ الْجَاذِبِ لَهَا مِنْ  
أَنفِهَا لَدَنَةٌ<sup>(٢)</sup> ، مَلَسَاءٌ ، عَلِيكَةً<sup>(٣)</sup> . فَيَحْتَاجُ الرِّفِيقُ فِي أَمْرِهَا ، عِنْدَ  
ذَلِكَ ، أَنْ يُرْسِلَهَا مِنْ يَدَيْهِ بَعْضَ الْإِرْسَالِ ، ثُمَّ يَنْشُطُهَا<sup>(٤)</sup> كَالْمَخْتَطَفِ  
وَالْمَخْتَلَسِ ، وَرَبَّمَا انْقَطَعَ ذَنْبُهَا فِي يَدِ الْجَاذِبِ لَهَا .

فَأَمَّا أُذُنَابُ الْأَفَاعِي فَإِنَّهَا تَنْتَبِتُ . وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهَا ، مِنْ هَذَا  
الْبَابِ أَنْ نَابِهَا يُقَطَّعُ فَيَنْتَبِتُ ، حَتَّى يَتِمَّ نَبَاتُهُ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثِ لَيَالٍ !  
وَالْخَطَّافُ ، فِي هَذَا الْبَابِ ، خِلَافُ الْخَنَزِيرِ . لِأَنَّ الْخَطَّافَ إِذَا  
قَلَعْتَ إِحْدَى عَيْنَيْهِ رَجَعَتْ ، وَعَيْنُ الْبِرْدُونِ<sup>(٥)</sup> يَرْكَبُهَا الْبَيَاضُ فَيَذْهَبُ فِي  
أَيَّامِ يَسِيرَةٍ . وَنَابُ الْأَفْعَى يُحْتَالُ لَهُ بِأَنْ يُدْخَلَ فِي فِيهَا حِمَاضُ أُتْرُجٍ<sup>(٦)</sup>  
وَيُطَبَّقُ لَحْيَتُهَا الْأَعْلَى عَلَى الْأَسْفَلِ ، فَلَا تَقْتُلُ بَعْضَتَهَا أَيَّامًا صَالِحَةً .  
وَالْمَغْنَاطِيْسُ الْجَاذِبُ لِلْحَدِيدِ إِذَا حُكَّتْ عَلَيْهِ الثُّومُ لَمْ يَجْذِبِ الْحَدِيدَ .  
وَالْأَفْعَى لَا تَدُورُ عَيْنُهَا فِي رَأْسِهَا ، وَهِيَ تَلِدُ وَتَبْيِضُ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا إِذَا  
طَرَقَتْ بَيَضُهَا تَحْطِمُ فِي جَوْفِهَا ، فَتَرْمِي بِفِرَاحِهَا أَوْلَادًا ، حَتَّى كَأَنَّهَا مِنْ  
الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَلِدُ حَيَوَانًا مِثْلَهُ .

(١) الْأَظْلَافُ : جَمْعُ ظَلْفٍ : الظَّفَرُ لَمَّا اجْتَرَمَ مِنَ الْحَيَوَانِ كَالْبَقَرَةِ وَالظَّبْيِ .

(٢) لَدَنَةٌ : لَيْتَةٌ .

(٣) الْعَلِكَةُ : الزَّجُّ .

(٤) نَشَطُهُ : نَزَعُهُ ، شَلُّهُ .

(٥) الْبِرْدُونُ : التَّرْكِيُّ مِنَ الْخَيْلِ وَهُوَ خِلَافُ الْعَرَابِ .

(٦) أُتْرُجٌ شَجَرٌ بَسْتَانِيٌّ مِنْ جَنْسِ الْيَمُونِ .

وفي الأفاعى من العجب أنها تُذبح حتى يُفري<sup>(١)</sup> منها كل ودج<sup>(٢)</sup> ؛ فتبقى كذلك أياماً لا تموت . فأمرت الحاوى<sup>(٣)</sup> ، فقبض على خرزة عنقها فقلت له : اقبضها من الخرزة التى تليها قبضاً رقيقاً . فما فتح بينها بقدر سم<sup>(٤)</sup> الإبرة حتى بردت ميتة . وزعم أنه قد ذبح غيرها من الحيات ، فعاشت على شبه ذلك . ثم إنه فصل تلك الخرزة على مثال ما صنع بالأفعى ، فماتت بأسرع من الطرف<sup>(٥)</sup> .

### عَيْنُ الْأَفْعَى

وزعم محمد بن الجهم أن العيون التى تضىء بالليل كأنها مصاييح : عيون الأسد ، والنمور ، والسنانير ، والأفاعى . فبينما نحن عنده ، إذ دخل عليه بعض من يجلب الأفاعى من سيجستان ، ويعمل الترياقات<sup>(٦)</sup> ، ويبيعها أحياء ومعمولة ، فقال له : حدثهم بالذى حدثتني به من عين الأفعى ! . قال :

نعم ! كنت فى منزلى نائماً فى ظلمة ، وقد كنت جمعت رؤوس أفاعٍ كنّ عندى لأرمى بها . وأغفلت تحت السرير رأساً واحداً . ففتحت عيني تجاه السرير الذى فى الظلمة ، فرأيت ضياءً ، إلا أنه

(١) فري الشيء : قطعه .

(٢) الودج : عرق إلى جانب ثغرة النحر ؛ وهما ودجان يميناً وشمالاً .

(٣) الحاوى : الذى يربى الحيات .

(٤) سم الإبرة : ثقبها .

(٥) من كتاب « الحيوان » .

(٦) الترياقات : جمع ترياق : دواء يُلغى السموم .

ضئيل ، ضعيف ، دقيق . فقلت : « عين غول ! أو بعض أولاد السعال<sup>(١)</sup> » وذهبت نفسى فى ألوان من المعانى ؛ فقامت فقدخت نارا ، وأخذت المصباح معى ، ومضيت نحو السرير . فلم أجد تحته إلا رأس أفعى . فأطفأت السراج ونمت ؛ وفتحت عيني فإذا ذلك الضوء على حاله . فنهضت ، فصنعت كصنيعي الأول ، حتى فعلت ذلك مرارا . ( قال ) فقلت لآخر مرة : « لا أرى شيئا إلا رأس أفعى ، فلو نحيت<sup>(٢)</sup> ! » فنحيت<sup>(٣)</sup> ، وأطفأت السراج ، ثم رجعت إلى منامى . ففتحت عيني فلم أرَ الضوء ، فعلمت أنه من عين الأفعى . ثم سألت عن ذلك ، فإذا الأمر حق ، وإذا هو مشهور<sup>(٤)</sup> فى أهل هذه الصناعة<sup>(٥)</sup> .

## حكمة الحية

حدثنا أبو جعفر المكفوف<sup>(١)</sup> النخوى العنبري ، وأخوه رَوْحُ الكاتب ، ورجال من بني العنبر : أن عندهم ، فى رمال بَلْعَنَبَر<sup>(٢)</sup> ، حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد . زعموا أنها إذا أتتصف النهار واشتدَّ الحرُّ فى رمال بَلْعَنَبَر ، وامتنعت الأرض على الخافى والمنتعل<sup>(٣)</sup> ، ورمض<sup>(٤)</sup> الجندب ، غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ، ثم

( ١ ) السعال جمع سعاله وهى أنثى الغول .

( ٢ ) من كتاب « الحيوان »

( ٣ ) المكفوف : الأعمى .

( ٤ ) بلعنبر : أى بنو العنبر ، فخفف كما يخفف بلعم وبلحرث وبلقين أى بنو العم وبنو الحرث وبنو القين ؛ وذلك يختص بالأحرف القمرية .

( ٥ ) رمض : احترق من شدة الحر .



أنتصبت كأنها رمحٌ مركزٌ أو عودٌ ثابتٌ . فيجىء الطائر الصغير أو الجرادُ ؛ فإذا رأى عوداً قائماً ، وكره الوقوع على الرمل لشدة حرّه ، وقع على رأس الحية ، على أنها عودٌ ؛ فإذا وقع على رأسها ، قبضت عليه . فإن كان جراداً أو جَعَلًا<sup>(١)</sup> أو بعض ما لا يشبعها مثله ، أبتلعه وبقيت على أنتصابها ؛ وإن كان الواقع على رأسها طائراً يُشبعها مثله ، أكلته وأنصرفت . وإنَّ ذلك دأبها ما منع الرملُ جانبها في الصيف والقيظ ، في انتصاف النهار والهجرة<sup>(٢)</sup> . وذلك أنَّ الطائر لا يشكُّ أن الحية عود ، وأنه سيقوم له مقامُ الجِذْلِ<sup>(٣)</sup> للحرباء ، إلى أن يسكن الحر ووهج الرمل .

وفي هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة ؛ وفيه جهلُ الطائر بفرق ما بين الحيوانِ والعود ؛ وفيه قلةُ اكتراث الحية للرمل الذي عاد كالجر ، وصلاح أن يكون ملةً<sup>(٤)</sup> وموضعاً للخبزة ؛ ثم أن يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعاتٍ من النهار ، والرملُ على هذه الصفة . فهذه أُعجوبة من أعاجيب ما في الحيات<sup>(٥)</sup> .

(١) الجعل : دويبة سوداء ذات جناحين سوداوين تطير بهما ؛ قيل حياته في الزبل ويضر به ريح الورد إذا جعل تحته .

(٢) الهجرة : انتصاف النهار وشلة الحر ، لأن الناس يستكنون إذ ذاك في بيوتهم كأنهم قد تهاجروا .

(٣) الجذل : عود ينصب للإبل الجربى لتحتك به .

(٤) الملة : الرماد الحار ، وخبز الملة : ما ينخبز في ذلك الرماد .

(٥) من كتاب « الحيوان » .

## وفاء الكلب

قال أبو عبيدة : خرج رجلٌ إلى الجَبَّان<sup>(١)</sup> ينتظر رِكابه<sup>(٢)</sup> ، فاتَّبعه كلبٌ كان له ، فضرب الكلب وطرده ، وكره أن يتَّبعه ، ورماه بحجرٍ . فأبى الكلب إلا أن يتبعه . فلَمَّا صار إلى الموضع الذي يريد فيه الانتظار ، ربض الكلب قريباً . فبينما هو كذلك ، إذ أتاه أعداءُ له يطلبونه بطائِلَةً<sup>(٣)</sup> لهم عنده . وكان معه جارئٌ له وأخوه دِنْيَا<sup>(٤)</sup> فأسلماه وهربا عنه . فجرح جراحاتٍ ، ورمى به في بئرٍ غير بعيدة القعر ؛ ثُمَّ حُيَّ عليه<sup>(٥)</sup> التراب ، ثُمَّ غُطِيَ رأسه ، ثُمَّ كُمِّ<sup>(٦)</sup> فوق رأسه منه<sup>(٧)</sup> ؛ والكلب في ذلك يرخم<sup>(٨)</sup> ويهر<sup>(٩)</sup> . فلَمَّا انصرفوا أتى رأس البئر؛ فما زال يعوى ،

(١) الجبان : الصحراء .

(٢) الركاب : الإبل .

(٣) الطائلة : الترة ، والظلم ، والثار .

(٤) تقول : هو ابن عم أو عمة ، أو ابن خال أو خالة ، أو ابن أخ أو أخت دنى ودنيا

ودنية : أى هو ابن عم لها أى لاصق النسب ، وكذا ما يليه ؛ فإن ضمت الدال في « دنيا » لم تصرف لأن الألف قد تعينت للتأنيث على الأصل ؛ وإن كسرت جاز صرفها وعده ، بلواز أن الألف للتأنيث أو للإلحاق ؛ أما إذا أضيف « العم » وما بعده إلى معرفة ، كما إذا قيل : « هو ابن عمى » ، وجب النصب على الحال ، فيقال : « هو ابن عمى دنيا » ، لأن « دنيا » نكرة ، فلا تكون نعتاً لمعرفة .

(٥) حثا عليه التراب : قبضه ورماه عليه ، وصبه عليه .

(٦) كم : جمع .

(٧) منه : أى من التراب .

(٨) يرخم : يرق له .

(٩) هر الكلب : صات دون نباح .

وينبش عنه ، ويحشو التراب بيده ، ويكشفه عن رأسه ، حتى أظهر رأسه فتنفس ، وردَّت إليه الروحُ ، وقد كاد يموت ، ولم يبق منه إلا حُشاشة<sup>(١)</sup> . فبينما هو كذلك ، إذ مرَّ ناسٌ ، فأنكروا مكان الكلب ، ورأوه كأنه يحفر عن قبرٍ . فنظروا ، فإذا هم بالرجل على تلك الحال ، فاستشالوه<sup>(٢)</sup> ، فأخرجوه حيًّا ، وحملوه ، حتى أدَّوه إلى أهله<sup>(٣)</sup>

### كلب يحسب لصاً

قال بشر بن سعيد : كان بالبصرة شيخ من بني نهشل<sup>(٤)</sup> يقال له عرووة بن مرثدٍ ، نزل بيني أخت له في سكة<sup>(٥)</sup> بني مازن<sup>(٦)</sup> وبنو أخته من قريش . فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك في شهر رمضان ، وبقيت النساء يُصلين في مسجدهم ، فلم يبق في الدار إلا كلبٌ يعس<sup>(٧)</sup> فرأى بيتاً ، فدخل ، وانصق<sup>(٨)</sup> الباب ، فسمع الحركة بعض الإماء ، فظنَّ أن لصاً دخل الدار ، فذهبت إحداهنَّ إلى أبي الأعز ، وليس في الحى رجلٌ غيره ، فأخبرته فقال أبو الأعز : « ما يبتغى اللصُّ منّا ؟ »

(١) الحشاش والحشاشة : بقية الروح في المريض والجريح .

(٢) استشالوه : رفعوه .

(٣) من كتاب الحيوان .

(٤) نهشل بن دارم : بطن من تميم .

(٥) السكة : الموضع الذي فيه دور مختلفة ومنازل متعددة لقوم يسكنون فيه ، وفي

خلالها طريق وسبيل لهم .

(٦) بنو مازن : من بني تميم .

(٧) عس : طاف في الليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة ؛ وهنا : يطوف ليلاً .

(٨) انصق : ارتد وانغلق .

ثم أخذ عصاه ، وجاء حتى وقف على باب البيت ، فقال : « إيه <sup>(١)</sup> يا ملأمان <sup>(٢)</sup> ! أما والله إنك بي لعارف ، وإني بك أيضاً لعارف ، فهل أنت إلا من لبصوص بني مازن ، شربت حامضاً خيثاً <sup>(٣)</sup> ، حتى إذا دارت الأقداح في رأسك ، منتك نفسك الأمانى <sup>(٤)</sup> ، وقلت : دور بني عمرو <sup>(٥)</sup> ، والرجال خلوف <sup>(٦)</sup> ، والنساء يصلين في مسجدهن ، فأسرقهن <sup>(٧)</sup> . سوءة والله ! ما يفعل هذا الأحرار ! كبئس ، والله ، ما منتك نفسك ! فاخرج ، وإلا دخلت عليك ، فصرمتك مني العقوبة <sup>(٨)</sup> ! لايم الله <sup>(٩)</sup> لتخرجن ، أو لأهتنن هتنة مشؤومة عليك ، يلتقي فيها الحيان عمرو وحنظلة <sup>(١٠)</sup> ، ويصير أمرك إلى تباب <sup>(١١)</sup> . ويحيى سعد <sup>(١٢)</sup> بعدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من هاهنا وهاهنا ولئن فعلت ، لتكونن أشأم مولود في بني تميم ! فلما رأى أنه لا يجيبه ، أخذ باللين ، وقال : اخرج يا بُنى ،

(١) إيه : كلمة زجر بمعنى حسبك .

(٢) يا ملأم ويا ملأمان : يالقيم .

(٣) الحامض الخبيث : أى الحامض من الخمر .

(٤) مناه الشيء وبه : جعله يتمناه .

(٥) بنو عمرو : أى عمرو بن تميم .

(٦) الخلوف جمع خلف وهم الذين ذهبوا من الحى .

(٧) فأسرقهن : أى أسرق النور .

(٨) أى عاقبتك عقاباً صارماً .

(٩) أيمن الله وأيم الله : اسم الله : اسم وضع للقسم ، والتقدير أيمن الله قسمي ؛ ولیم الله

وليم الله (لايم ولايمن) : اللام فيهما لام الابتداء حلفت معها ألف الوصل إلا نادراً .

(١٠) حنظلة : حى من بني تميم .

(١١) التباب : الحسران والهلاك .

(١٢) سعد : هم بنو سعد بن زيد مناة من تميم .

وأنت مستورٌ ؛ إني ، والله ، ما أراك تعرفني ، ولو عرفتني لقد قنعت  
بقولي ، واطمأنتَ إليَّ . أنا عروةُ بنُ مرثدٍ أبو الأعزِّ المرثديُّ ، وأنا  
خال القوم ، وجلدة ما بين أعينهم<sup>(١)</sup> لا يعصونني في أمرٍ ؛ وأنا لك  
بالذمة كفيلاً خفياً<sup>(٢)</sup> ، أصيرُّك بين شحمة أذني وعاتقي<sup>(٣)</sup> لا تُضار<sup>(٤)</sup> .  
فاخرج ، فأنت في ذمتي ، وإلا ، فإنَّ عندى قَوْصَرَتَيْنِ<sup>(٥)</sup> : إحداها  
إلى ابنِ أختي البارِّ الوصولِ<sup>(٦)</sup> ، فخذ إحداها ، فانتبِذها<sup>(٧)</sup> حلالاً من  
الله تعالى ورسوله .

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق<sup>(٨)</sup> ، وإذا سكّت ، وثب  
مُريغ<sup>(٩)</sup> المخرج . قتهانف الأعرابيُّ ، أى تضاحك ، ثم قال : يا ألام  
الناس وأوضعهم ، ألا يأتني لك<sup>(١٠)</sup> أنا منذ الليلة في وادٍ ، وأنت في  
آخر ! إذا قلت لك السوداء والبيضاء<sup>(١١)</sup> ، تسكت وتطرق ؛ فإذا  
سكتُ عنك ، تُريغ المخرج ! والله لتخرجنَّ بالعفو عنك ، أو لألجئنَّ  
عليك ألييت بالعقوبة !

(١) يقال : هو جلدة ما بين العينين : أى هو مثلها في العزة والقرب .

(٢) الخفي : الخير والحامى والمحافظة .

(٣) العاتق : الكتف ؛ يقال : صيره بين شحمة أذنه وعاتقه أى في عنقه ، أى في ذمته .

(٤) ضاره الأمر : أضربه .

(٥) القوصرة : وعاء من قصب يجعل فيه التمر ونحوه .

(٦) الوصول : الكثير الوصل وهو البر والعطاء .

(٧) انتبذها : اصنعها لك نبيذاً .

(٨) أطرق : سكّت .

(٩) أراغ : لغة في أراد .

(١٠) ألا يأتني لك : أى أما حان لك ( أن تعرف ) .

(١١) إذا قلت لك السوداء والبيضاء : إذا قلت لك كلمة تسوءك أو تسرك .



فلما طال وقوفه ، جاءت جاريةٌ من إماءِ الحىِّ ، فقالت : أعرابىٌ مجنون ! والله ما أرى فى البيت شيئاً ! ودفعتِ الباب ، فخرج الكلب شداً<sup>(١)</sup> ، وحاد عنه أبو الأعز مُستلقياً ، وقال : الحمد لله الذى مسخك كلباً ، وكفانى منك حرباً ! ثم قال تالله ، مارأيت كالليلة . ما أراه إلا كلباً . أما والله ، لو علمتُ بحاله لولجت عليه<sup>(٢)</sup>.

### الذباب والبعوض

ذكر محمدُ بن الجهم فيما خبرنى عنه به بعض الثقات أنه قال لهم ذات يومٍ : هل تعرفون الحكمة التى استفدناها فى الذباب ؟ قالوا : لا . قال : بلى ، إنها تأكل البعوض وتصيده وتلقطه وتُفنيه ؟ وذلك أنى كنتُ أريد القائلة<sup>(٣)</sup> ، فأمرت بإخراج الذباب ، وطرح الستر ، وإغلاق الباب ، قبل ذلك بساعةٍ . فإذا خرجن ، حصل فى البيت البعوضُ ، وقوى سلطانه . فكنت أدخلُ إلى القائلة ، فياكلنى البعوض أكلاً شديداً . فأتيت ذات يوم المنزلَ فى وقت القائلة ، فإذا ذلك البيت مفتوح ، والستر مرفوع ؛ وقد كان الغلمان أغفلوا ذلك فى يومهم . فلما اضطجعت للقائلة لم أجد من البعوض شيئاً ؛ وقد كان غضبى اشتدَّ على الغلمان ، فنمت فى عافية . فلما كان من الغد ، عادوا إلى إغلاق الباب ،

(١) شدا : عدواً .

(٢) من كتاب « الحيوان » .

(٣) القائلة : النوم فى نصف النهار .

وإخراج الذباب . فدخلت ألتمس القائلة ، فإذا البعوضُ كثيرٌ . ثم أغفلوا إغلاق الباب يوماً آخر ؛ فلما رأيته مفتوحاً ، شتمتهم ؛ فلما صرت إلى القائلة ، لم أجد بعوضةً واحدة . فقلت في نفسي عند ذلك : أراني قد نمت في يومٍ الإغفال والتضييع ، وأمتنع مني النوم في أيام التحفظ والاحتباس ؛ فلم لا أُجربُ ترك إغلاق الباب في يومٍ هذا ، فإن نمت ثلاثة أيام لا ألقى من البعوض أذى مع فتح الباب علمتُ أن الصواب في الجمع بين الذَّبَّانِ والبعوض ؛ فإن الذَّبَّانِ هي التي تفنيه ؛ وأن صلاح أمرنا في تقريب ما كنّا نباعد . ففعلتُ ذلك ، فإذا الأمر قد شَمَّ . فصرنا إذا أردنا إخراج الذَّبَّانِ ، أخرجناها بأيسر حيلة ؛ وإذا أردنا إفناء البعوض ، أفينهاها على أيدي الذَّبَّانِ بأيسر حيلة .

### القاضي والذباب

ثم رجع بنا القول إلى إلحاح الذبان . كان لنا بالبصرة قاضي يقال له عبد الله بن سَوَّار ، لم يرَ الناس حاكماً قط زِمْتاً<sup>(١)</sup> ، ولا ركيناً<sup>(٢)</sup> ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك . كان يصلي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده فيأتي مجلسه فيحتبي<sup>(٣)</sup> ولا

(١) الزميت : الكثير الوقار .

(٢) الركين : الرزين .

(٣) احتبي : جمع بين ظهره وساقيه بعامة ونحوها .

يَتَكَيُّ . فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحلّ حُبُوتَه ، ولا يُحِلُّ رِجْلاً على رِجْل ، ولا يعتمد على أحد شِقِيئِهِ<sup>(١)</sup> ، حتى كأنه بناء بني أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر . ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر . ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب . ثم ربما عاد إلى محله ؛ بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق . ثم يصلي العشاء ، وينصرف . فالحق يقال لم يقم ، في طول تلك المدة والولاية ، مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها . وكان مع ذلك ، لا يُحَرِّك يده ولا يُشِير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم .

فَبَيْنَا هو كذلك ، ذات يوم ، وأصحابه حواليه ، وفي السَّامَاطِينِ<sup>(٢)</sup> بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذُباب . فأطال المكث ، ثم تحوّل إلى مَوْقٍ<sup>(٣)</sup> عينه . فرام الصبر في سقوطه على المَوْقِ وعلى عضّه ونفاذ خُرطومِه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يُحَرِّك أَرْنَبَتَهُ<sup>(٤)</sup> ، أو يُغَضِّن وَجْهَهُ ، أو يذنب<sup>(٥)</sup> بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله ، وأوجعه ، وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل

( ١ ) الشقان : الجانبان . ( ٢ ) أى متظمين بالقرب منه .

( ٣ ) موق العين : طرفها بما يل الأنف .

( ٤ ) أرنبة الأنف : طرفه .

( ٥ ) ذب : دفع ورد .

التغافل ، أطبقَ جَفَنَهُ الأَعْلَى على جَفَنِهِ الأسفل ؛ فلم يَنْهَضْ . فدعاه ذلك إلى أن يُوالى بين الإطباقِ والفتح ، فتنحَّى ريثما سَكَنَ جَفَنَهُ . ثم عاد إلى مَوْقِعِهِ بِأَشَدِّ من مرَّته الأولى ، فغمس خرطومَه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك . فكان احتمالُه له أضعف وعَجَزُهُ عن الصبر في الثانية أقوى ، فحرَّكَ أجنافَه ، وزاد في شدَّة الحركة ، وألحَّ في فتح العين ، وفي تتابعِ الفتح والإطباق . فتنحَّى عنه بقدر ما سكنت حركته . ثم عاد إلى موضِعِهِ ، فما زال يُأخِّضُ عليه حتى أُستفْرِغَ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذبَّ عن عينيه يده . ففعل ، وعيون القوم إليه ، ترمقه ، وكأنهم لا يُريدونه . فتنحَّى عنه بقدر ما ردَّ يده وسكنت حركته . ثم عاد إلى موضِعِهِ . ثم أوجَّاه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطرف كمة . ثم أوجَّاه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فِعْلَهُ كُلَّهُ بعين من حضره من أُمَنائِهِ وجُلُساتِهِ . فلما نظروا إليه قال : « أشهد أن الذباب ألحُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب . وأُستغفرُ الله ! فما أكثر من أعجبتُهُ نفسُهُ فأراد الله ، عزَّ وجلَّ ، أن يُعرِّفه مِنْ ضَعْفِهِ ما كان عنه مستوراً ! وقد علمت أنى عند نفسي من أضعفِ الناس ، فقد غلبني وفضحتني أضعفُ خلقه . » ثم تلا قَوْلَهُ تعالى : « وَإِنْ يَسْتَلْهِمِ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ! » وكان يَبْنِ اللسان قليل فُضُول الكلام ؛ وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحدَ من لم يُطعن عليه في نفسه ولا في تعريض أصحابه للمُبالاة<sup>(١)</sup> .

(١) من كتاب «الحيوان» الجزء ٣ ص ٢٤٣ .

## إلحاح الذبّان على الجاحظ

فأما الذى أصابنى أنا من الذبّان ، فإنى خرجتُ أمشى من عند ابن المبارك أريد دَيْرَ الربيع ، ولم أقدر على دِابَّة . فمررتُ فى عشبٍ ونباتٍ مُلتفٍّ كثير الذبّان ، فسقط ذُبابٌ من ذلك الذبّان على أنفى . فطردته ، فتحوّل إلى عيني . فزدت فى تحريك يدي . فتنحّيتُ عنى بقدر شدة حرّكتي وذبتى<sup>(١)</sup> عن عيني — ولذبّان الكلال والغياض والرياض وَقَعَ ليس لغيرها — ثم عاد إلىّ ، فعدتُ عليه . ثم عاد ، فعدتُ بأشدّ من ذلك . فلما عاد استعملتُ كمتى ، فذببتُ به عن وجهي . ثم عاد ، وأنا فى ذلك أحثُّ السير<sup>(٢)</sup> ، أوُمِّلُ بسرعتي انقطاعه عنى . فلما عاد نزعْتُ طيلسانى<sup>(٣)</sup> من عنقى ، فذببتُ به عنى بدلَ كمتى . فلما غاود ، ولم أجِدْ له حيلة ، استعملتُ العَدُوَّ ، فعدوتُ منه شَوْطًا لم أتكلّف مثله مذ كنت صبيًّا . فتلقّانى الأندلسى فقال لى : « مالك ، يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ » قلت : « نعم ! أريد أن أخرج من موضع للذبّان علىّ فيه سلطان . فضحك حتى جلس . وانقطع<sup>(٤)</sup> عنى ، وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تباعد جدًّا<sup>(٥)</sup> .

(١) ذب : دفع وطرده .

(٢) حث السير : عجل فيه .

(٣) الطيلسان : كساء ملور أخضر لا أسفل له ، لحمة أو سداه من صوف ، يلبسه

الخواص من العلماء والمشايخ . وهو من لباس العجم ؛ وهو لفظ معرب من «تالسان» الفارسية .

(٤) الضمير للذباب .

(٥) من كتاب «الحيوان» الجزء ٣ ص ٣٤٦ .



## ٥ - الجاحظ الضاحك المتهم

### الترييع والتدوير

كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر يدعى أنه مفرط الطول، وكان مربعاً ، جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعى السبابة والرشاقة، وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن ، معتدل القامة . وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها . فبرم منه الجاحظ وكتب إليه هذه الرسالة يسأله فيها مئة مسألة ، وأسلوبه في ذلك أسلوب التهكم والاستهزاء .

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَكَرَامَتَهُ لَكَ . قَدْ عَلِمْتُ ، حَفْظَكَ اللهُ ، أَنْكَ لَا تَحْسَدُ عَلَى شَيْءٍ حَسَدَكَ عَلَى حَسَنِ الْقَامَةِ ، وَضَخَمِ الْهَامَةَ ، وَعَلَى حَوْرِ الْعَيْنِ<sup>(١)</sup> وَجُودَةَ الْقَدِّ ، وَعَلَى طَيْبِ الْأَحْدُوثةِ وَالصَّنِيعَةِ الْمَشْكُورَةِ . وَأَنْ هَذِهِ الْأُمُورُ هِيَ خَصَائِصُكَ الَّتِي بِهَا تَكْلَفُ<sup>(٢)</sup> ، وَمَعَانِيكَ الَّتِي بِهَا تَلْهَجُ . . . . . وَبَعْدَ ، أَبْقَاكَ اللهُ فَأَنْتَ فِي يَدِكَ قِيَاسٌ لَا يَنْكُسرُ ، وَجَوَابٌ لَا يَنْقَطِعُ ، وَلَا حَدٌّ لَا يُفْلَ ، وَغَرْبٌ<sup>(٣)</sup> لَا يَنْثَنِي ، وَهُوَ قِيَاسُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تُنْسَبُ ، وَمَذْهَبُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَذْهَبُ ، أَنْ تَقُولَ : وَمَا عَلَيَّ إِنْ رَأَى النَّاسُ عَرِيضًا وَأَكُونُ فِي حَكْمِهِمْ غَلِيظًا ، وَأَنَا عِنْدَ اللهِ طَوِيلٌ جَمِيلٌ ، وَفِي الْحَقِيقَةِ مَقْدُودٌ رَشِيقٌ . وَقَدْ عَلِمُوا ، أَبْقَاكَ اللهُ ، أَنْ

(١) حور العين : اشتداد سواد سوادها في اشتداد بياض بياضها واستدارة حدقتها ورقة جفونها .

(٢) كلف بالشيء : أروع به ولما شديداً .

(٣) الغرب : الحد .

لك مع طول الباد<sup>(١)</sup> راكباً طول الظهر جالساً . ولكن بينهم فيك  
 إذا قمتَ اختلاف ، وعليك لم إذا اضطجعتَ مسائل ، ومن غريب  
 ما أعطيتَ وبديع ما أوتيتَ أننا لم نَرِ مقدوداً واسع الجُفرة<sup>(٢)</sup> غيرك ،  
 ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ، فأنتَ اللديد ، وأنتَ البسيط ،  
 وأنتَ الطويل ، وأنتَ المتقارب . فيا شعراً جمع الأعاريض<sup>(٣)</sup> ، ويا شخصاً  
 جمع الاستدارة والطول ! بل ما يهْمُك من أقاويلهم ويتعاضدك من  
 اختلافهم ، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون أنَّ استفاضة  
 عَرْضِكَ قد أدخلت الضيم على ارتفاع سَمَكِكَ<sup>(٤)</sup> ، وأن ما ذهب منك  
 عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً . ولئن اختلفوا في طولك لقد  
 اتفقوا في عَرْضِكَ ، وإذا قد سلموا لك بالرغم شطراً ومنعوك بالظلم شطراً ،  
 فقد حصلت ما سلموا وأنت على دعواك فيما لم يُسَلِّموا . ولعمري إن  
 العيون لتُخطئ وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ،  
 وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ كان زِمَاماً على الأعضاء وعياراً  
 على الحواس . . .

وبعد حديث طويل على هذا المنوال يوجه الجاحظ إلى خصمه أسئلته وإليك بعضاً منها :

خبرني عن معنى القُرَات على حَقِّه وصدقهِ ، وعن نضوب البحر  
 وعن تنقُّص الأرض ، ولمَّ عمل الفَلَك في هذا العالم وليس بينهما شبه ،

( ١ ) الباد : باطن الفخذ .

( ٢ ) الجفرة : جوف الصدر ، أو ما يجمع الصدر والجنبين .

( ٣ ) راجع الحاشية ١ في صفحة ٢٨ .

( ٤ ) السمك : الارتفاع .

وهلّا عمل فيه بقدره منه ، وهل يجوز أن يَعْمَلَ شيءٌ في شيءٍ إلّا  
والآخر يعمل فيه ؟ وخبرني مذكم كان الناسُ أُمَّةً واحدةً ، ولغاتُهم  
متساوية ؟ وبعدكم بطن اسودّ الزنجيّ وابيض الصقليّ ؟ ولم صار  
اللون أسرعَ تنقُّصًا من الجمود ؟ ولم كان الولد يجيء على شبه ما في  
أبيه من الأمور الحادثة في بدنه عن غير القديمة في أصل تركيبه ، ومع  
ذلك لم يولد صبيّ قطّ في العرب مجنونًا . . .

جُعِلَتْ فداك أيّما أطول عمراً الناس ، أم عَيْرُ العانة<sup>(١)</sup> ، أم الحيّة ،  
أم الضبّ ، ومتى تستغنى الحيّة عن الغذاء ، ومتى ينتفع الضبّ  
بالنسيم ؟ . . . وخبرني عن جواهر الأرض ، وعن جَمْعِ القارِ أشياء  
مفروغ من خلقه أم أرض يستحيل إليه ؟ ولم عمل بعض السمّ في العصب ،  
وبعضه في الدم ، وبعضه فيهما جميعاً ؟ ولم كان بعضه سمّ نجاز وبعضه  
سمّ جهاز ؟ ولم صار لا يقتل مع العادة وقتل قبل العادة ، إلّا أنّ الطبائع  
تنكر الشيء الغريب أم لأنّه ضدّ في نفسه ؟ وكيف صار مع ريق الأفعى  
ريق بعض الناس في القتل ، وفي أيّهما سمّ ؟ . . .<sup>(٢)</sup>

(١) العير : الحمار الوحشي . العانة : الأتان ، والقطع من حمار الوحش .

(٢) من مجموعة رسائل الجاحظ - مصر ١٣٢٤ هـ .

## ١ - المراجع العربية

- الجاحظ : كتاب الحيوان . طبع مصر .  
 الجاحظ : كتاب البخلاء . طبع دمشق ١٩٣٨  
 الجاحظ : كتاب البيان والتبيين . طبع مصر ١٩٢٧  
 الجاحظ : مجموعة رسائل . طبع مصر ١٩٤٣  
 ياقوت : معجم الأدباء . دار المأمون . ج ١ ص ٧٤-١١٤  
 ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ ص ٤٩٠  
 الشهرستاني : كتاب الملل والنحل ص ٥٢ . ليبسك ١٩٢٣  
 ابن الأنباري : طبقات الأمراء ص ٢٥٤  
 الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد . القاهرة ١٩٣١  
 قليب حتى : تاريخ العرب . ج ٢ . بيروت ١٩٤٩  
 زهدى حسن جار الله : المعتزلة . القاهرة ١٩٤٧  
 جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى . القاهرة ١٩٣١  
 جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٢ . القاهرة ١٩٣٠  
 أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون . ج ١ . ص ٦٩-١٨٢ . القاهرة ١٩٢٧  
 حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربى . ص ٥٥٩-٥٩١ .  
 حريصا ١٩٥١  
 محمد كرد على : : أمراء البيان . ج ٢ ص ٣١١-٤٨٧ .  
 القاهرة ١٩٣٧  
 أنيس المقدسى : تطور الأساليب النثرية . ص ١٧٦-٢٠١ . بيروت  
 أحمد أمين : ضحى الإسلام . ج ١ ص ٤٠٨-٤٢٤ .  
 القاهرة ١٩٣٨  
 أحمد أمين : ضحى الإسلام . ج ٣ ص ١٢٧-١٤١ .  
 القاهرة ١٩٤١

- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي . ص ٥٨ - ٧٨ .  
القاهرة ١٩٤٦
- طه حسين : من حديث الشعر والنثر . ص ٨٠ - ١٢٣ .  
القاهرة ١٩٣٦
- شفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب . القاهرة ١٩٤٨  
حسن السندوني : أدب الجاحظ . القاهرة ١٩٣١  
خليل مردم : الجاحظ . دمشق ١٩٣٠  
محمد المبارك : فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ .  
دمشق ١٩٤٠
- محمد فهمي عبد اللطيف : دعاية الجاحظ . الرسالة ٥ (١٩٣٧) ص ٢٢٠ ،  
٢٥٥ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٣٨٥ ، ٥٠٨ .
- عبد الملك عبد اللطيف نوري : مع الجاحظ في حياته وأدبه - الأديب ٥ ،  
عدد ١٢ : ٨ .

## ٢ - المراجع الأجنبية

- Carra de Vaux* : Les Penseurs de l'Islam, T. I.  
*Brockelmann* : Histoire des Peuples et des Etats Islamiques-Paris 1949  
*Brockelmann* : Gesch. d. Arab. Litterature, I, 152.  
*Brockelmann* : Al-Djahiz, in Encycl. de l'Islam, T. 1, 1028-1029.



فیر

## الفصل الأول

عصر الجاحظ

٥	.	.	.	.	.	١ — البيئة السياسية
٨	.	.	.	.	.	٢ — البيئة الاجتماعية
١١	.	.	.	.	.	٣ — البيئة الثقافية

## الفصل الثاني

## الجاحظ في عصره

١٥	.	.	.	.	.	. . . : حياة الجاحظ :
١٥	.	.	.	.	.	. ا - أصل الجاحظ وطلبه للعلم
١٦	.	.	.	.	.	. ب - الرجل الكاتب والعالم.
١٩	.	.	.	.	.	. ج - الشيخ العليل.
٢٠	.	.	.	.	.	. ٢ - شخصية الجاحظ :
٢٠	.	.	.	.	.	. ا - شخصيته الأخلاقية .
٢١	.	.	.	.	.	. ب - شخصيته الثقافية .
٢٢	.	.	.	.	.	. ج - شخصيته الدينية .

## الفصل الثالث

## جوانب الجاحظ

٢٤ . . . . . ١ - آثار الجاحظ :

٢٦ . . . . . ١ - رسالة التريخ والتلويز





تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف  
في شهر فبراير (شباط) سنة ١٩٥٣





## مجموعة نوابغ الفكر العربي

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربي في جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربي في العصر الحاضر من كل قطر وبلد فهي تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد في كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعاني مبين الأغراض ملحوظاً في اقتباسه أن يعزز الترجمة والنقد بالشواهد والأمثال .

فالمجموعة بهذه المثابة دائرة معارف كاملة تنقل الأدب الحى كما أوجت به قرائح الأدباء . وإنها لذخيرة حديثة تضاف إلى ذخائر الأقدمين ، وليس قصارها أنها تعريف بها وحكاية عنها ، فهي تحية العصر الحاضر للعصور الماضية ، وهديته إلى العصور المقبلة ، يرجى أن يحمد لها عشاق الضاد ، كلما جرى بها قلم أو هتف بها لسان .

### ● ظهر منها

- |                       |                        |
|-----------------------|------------------------|
| ١ - ابن رشد           | بقلم عباس محمود العقاد |
| ٢ - الجاحظ            | بقلم حنا الفاخورى      |
| ٣ - الشيخ نجيب الحداد | بقلم عادل الغضبان      |

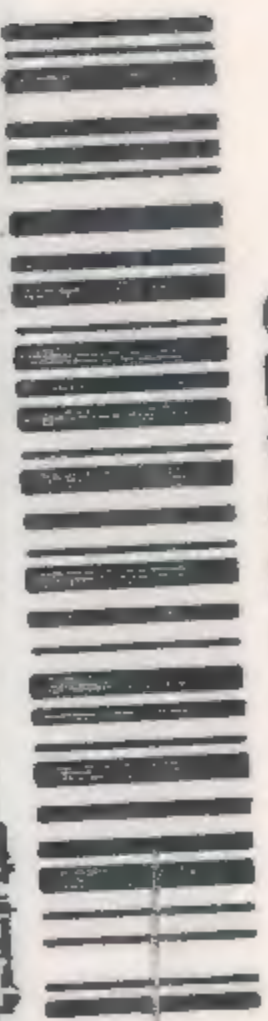
### ● يظهر قريباً

- |                         |                        |
|-------------------------|------------------------|
| ٤ - محمود سامى البارودى | بقلم عمر الدسوقي       |
| ٥ - ابن زيدون           | بقلم شوقى ضيف          |
| ٦ - الشيخ ناصيف اليازجى | بقلم عيسى ميخائيل سابا |

### ● تحت الطبع

عدد وافر من كتب هذه المجموعة لجمهرة من نوابغ الفكر القدامى والحديثة  
ثمن النسخة ١٢٥ مليماً

Andriana



0656670

83

f